

الله عزّ وجلّ

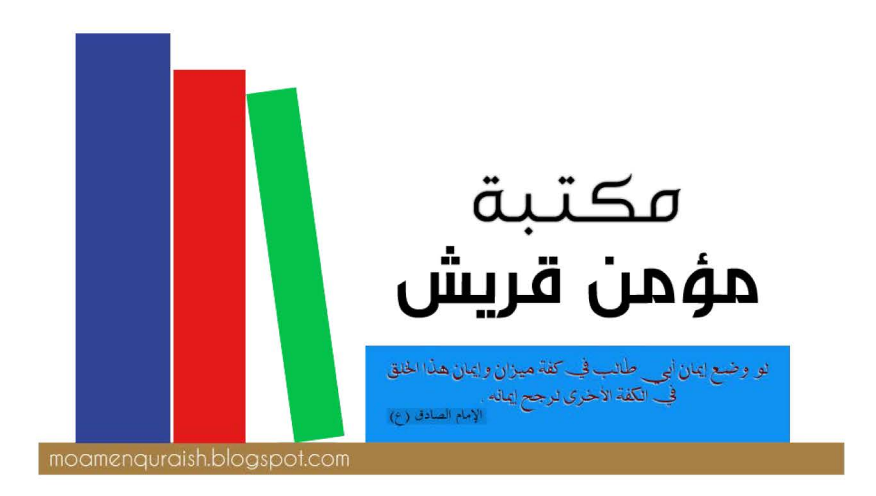
الحقيقة الدائمة ومبدأ العلية

على ضوء كتاب «فلسفتنا» لأستاذي
الإمام السيد الشهيد الأول
محمد باقر الصدر (قدس سره)

حسن الراضي (أبو آدم)



دار المحجة البيضاء



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

(الإمام الصادق عليه السلام)

الحقيقة الدائمة

ومبدأ العلية في صراع الفلسفة الإسلامية

فلسفة

(٢)

(أدام الله ظله)

الحقيقة الدائمة

ومبدأ العلية في صراع الفلسفة الإسلامية

على ضوء كتاب «فلسفتنا» لأستاذي

الإمام السيد الشهيد الأول محمد باقر الصدر قدس سره

دراسة موضوعية تحليلية لمختلف الصراع الفكري

بين التيارات والمذاهب الفلسفية المادية

منها الديالكتيكية والميتافيزيقية مع الفلسفة الإسلامية

أبـو آدم

حسن الراضي

دار المحجة البيضاء

© حقوق الطبع محفوظة ومسجلة

لا يسمح بطبعه إلا بموافقة خطية من المؤلف

وخلاف ذلك يتحمل المسؤولية القانونية

الطبعة الأولى سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

ISBN: 978-9953-567-48-8



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.





مقدمة

تفضل بها العلامة الشيخ حسن الصفار

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين .

تمثل شخصية الإمام السيد محمد باقر الصدر أفضل أنموذج للفقيه المسلم المعاصر، حيث قدم تجربة رائدة في الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وفي تحمل مسؤولية الدعوة والدفاع عن مصالح الدين والأمة.

فقد استوعب قيم الدين ومفاهيمه وتشريعاته، بقدرة اجتهادية فائقة، وعلى مستوى الاستنباط وتكوين الرأي في المسألة الفكرية والفقهية.

كما انفتح على تطورات الحياة، وقرأ التيارات الفكرية المعاصرة، في عمقها الفلسفي، ومناهجها الاجتماعية والاقتصادية، ودرسها دراسة دقيقة واعية.

واستطاع أن يكشف مواقع الضعف والخلل في تلك التوجهات، وإنها عاجزة عن تحقيق ما يصبو إليه الإنسان من معرفة حقيقية، ونظام اجتماعي صالح.

وفي مقابل عجز تلك المذاهب الفلسفية المادية، والمدارس الاقتصادية الوضعية من رأسمالية وماركسية، قدم الإمام الصدر رؤية الإسلام الواضحة في منهجية المعرفة، وإدارة الاجتماع البشري، وتنظيم الشأن الاقتصادي.

فكان كتاباه العظيمان «فلسفتنا» و «اقتصادنا» أهم استجابة معرفية إسلامية للتحديات الحضارية المعاصرة من الغرب الرأسمالي، والشرق الماركسي، أبانت للمفكرين الآخرين عمق الفكر الإسلامي وصلابته العلمية، وقدرته على مواجهة أصعب التساؤلات، وأعقد الإشكالات.

كما وجدت الساحة الإسلامية في كتابي «فلسفتنا» و«اقتصادنا» ما كانت تبحث عنه وتحتاج إليه من مضمون علمي فكري، يساعدها على الثبات والصمود في

وجه الحضارة المادية الزاحفة، المدججة بالقوة العسكرية والتقدم الصناعي والتطور التكنولوجي.

فقد تسلل الشعور بالضعف والهزيمة إلى مساحة كبيرة من ساحة الأمة، وظن البعض أن هذا العصر سيشهد نهاية الفكر الديني بشكل عام، والفكر الإسلامي بشكل خاص.

لكن الروح الإسلامية المتجذرة في أعماق النفوس، وما ينطوي عليه الإسلام من قوة الحق كدين إلهي، والدور الذي قام به العلماء المجاهدون، كل ذلك أدّى إلى قلب المعادلة، وتغيير موازين القوة لصالح الإسلام العزيز.

ويأتي السيد الشهيد الصدر في الطليعة من العلماء الربانيين المجاهدين، حيث أمدّ الأمة بعطائه العلمي المميّز، الذي ألهمها الثبات والصمود، وتجاوز بالفكر الإسلامي مرحلة الدفاع إلى مستوى الهجوم الكاسح على مواقع الفكر الآخر.

وشاء الله تعالى لهذا الفقيه المجدد، أن يكتب بمواقفه الرسالية، وبدمه الزكي ملحمة أخرى للثبات والمقاومة تتوج ملاحمه الفكرية العلمية الرائدة.

لقد مضى أكثر من نصف قرن على صدور كتابي «فلسفتنا» و «اقتصادنا»، وحصلت تطورات فكرية وسياسية واجتماعية كبيرة على الساحة العالمية، لكن الكتابين لا زالا في موقع الصدارة، بل إن التطورات المختلفة جاءت مؤكدة وداعمة لما أورده الشهيد الصدر من نقد متين للمذاهب المادية، فقد تهاوت صروح الماركسية، وتصاعدت أزمات الرأسمالية، واستعادت الأمة الإسلامية ثقتها بدينها، وتألق الإسلام كمشروع حضاري واعد.

وبين يدي القارئ الكريم جهد معرفي مبارك، قدمه أحد تلامذة الشهيد الصدر، المنتهلين من نمير علمه، والذين منحهم الله تعالى فرصة وشرف الاقتراب من شخصيته الفريدة، ومعايشة خصائصه الأخلاقية العالية.

إنه الأخ العزيز العلامة الشيخ حسن الراضي حفظه الله تعالى، والذي يقدم في هذا الكتاب قبسات من فكر الشهيد الصدر، ضمن دراسة موضوعية تحليلية لأبعاد الصراع الفكري بين التيارات والمذاهب الفلسفية المادية،

وبين الفكر والفلسفة الإسلامية، على ضوء كتاب «فلسفتنا» .

وتتميز هذه الدراسة بوضوح التعبير، وحسن الأسلوب، ورشاقة العرض. توّجها الشيخ المؤلف بكتابة سطور مضيئة عن حياة الإمام الشهيد الصدر، رضوان الله تعالى عليه، موثقاً فيها بعض صور ومشاهد علاقته بالسيد الشهيد، بعبارات وجدانية صادقة، نابعة من أعماق قلبه، تعكس مدى حبه وعشقه وإخلاصه للأستاذ الكبير.

لقد أنعم الله تعالى على أخي العلامة الشيخ حسن الراضي بنعم عظيمة كثيرة، في طليعتها فرصة القرب من العلماء الصالحين المصلحين، والتزود من فيض علمهم، واقتباس مكارم أخلاقهم، والتعرف على خصوصيات حياتهم، كالشهيدين السيد محمد باقر الصدر والسيد محمد باقر الحكيم.

وقد رأى هؤلاء العلماء في الشيخ الراضي سمة التقوى والصلاح، والطيب والاستقامة، فأولوه ثقتهم، واعتمدوا عليه في أداء بعض مهامهم الخاصة، التي لا يقوم بها إلا ثقة مخلص مستعد للبذل والتضحية.

ومن خلال معرفتي للشيخ الراضي منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، لمست انعكاس تربية أولئك العلماء الربانيين على شخصيته وسيرته، فهو حريص على التزام نهج التقوى، حذر من الوقوع في مزالق الأهواء والخلافات والصراعات، مهتم بخدمة الدين والمجتمع، قريب من الناس بتواضعه وأخلاقه، داعم ومشجع لجهود الإصلاح ومواقف المصلحين.

أسأل الله تعالى له المزيد من التوفيق والتسديد، وأن ينفع بكتابه هذا، ويجعله في سجل أعماله وميزان حسناته، إنه تعالى ولي التوفيق.

والحمد لله رب العالمين.

حسن الصفار

12 محرم الحرام 1432 هـ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي لا تبلغ الخلائق كنه حمده، وتعجز عن أداء شكره في نعمة واحدة، فضلاً عن شكره لأنعمه الجمة التي لم يحط خليفته (الإنسان) في أرضه بعظمتها وعددها، بل ولن يبلغ شأوها وقدرها.

ثم الصلاة والسلام وأزكى التحيات على رسوله الخاتم، والنور الساطع والضياء اللامع والرحمة المهداة، والبركة المزجاة، نور الأبصار وطبيب النفوس، ودواء القلوب محمد بن عبد الله ﷺ.

وعلى آله وعترته مصابيح الدجى وأعلام التقى وقادة العباد وساسة البلاد الذين اجتباهم الله تعالى واصطفاهم وطهرهم من الدنس والرجس «تطهيراً» وأصحابه البررة.

أما بعد:

فقد وفقني الله تعالى بمنه ولطفه وهو المنان دوماً، أن أقدم لك أخي القارئ الكريم! وريقاتي الخجولة بما تحمل في طياتها قبساً من سناء مدرسة السيد الأستاذ الإمام الشهيد الصدر الأول ﷺ، مدرسة الفكر والمعرفة بمعناها الشامل والواسع الذي شملت كل الآفاق والميادين البشرية.

لم تعد مدرسة الإمام الصدر ﷺ مدرسة تقليدية، وإنما هي لها من الشمول والانفتاح المقدس، ما يجعلها في مقام التمثيل لفكر الإسلام الأصيل، الذي هو لسان الثقلين (الكتاب والعترة).

إن مدرسة الإمام الصدر ﷺ هي روح الإسلام وفكره وثقافته وسعته، لكل زمان ومكان، وكل شرائح المجتمع البشري، وتنوع ثقافاته وألوانه وطبائعه، فإن مدرسته الفكرية الثقافية الإسلامية الأصيلة قادرة أن تستوعب كل الأطياف، وتغذي جميع الأذهان وبقناعة، لما تحمل من مخزون علمي هائل عميق أصيل تمتد جذوره إلى شجرة

الإسلام وترتبط ارتباطاً عضوياً بجذور العقل السليم والكتاب الكريم والسنّة المقدسة.

إن الأدوات التي تحملها هذه المدرسة العملاقة هي أدوات ولبنات، قد أشاد الرسول ﷺ وأصحابه الهداة بها صرح الإسلام الشامخ الذي كانت إليه تهفو القلوب من **﴿كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾**[1]، ووضع القياصرة والأكاسرة بكل سرور ومحبة تيجان جبروتهم من أبوابه الواسعة **﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾**[2].

إنها في أفكارها وعلمها وقوتها وصلابتها مدرسة من مدرسة محمد وعلي والصحابة الأبرار الكماة عليهم السلام.

إن الإمام الصدر قدس سره تمكن بهذه الروح الأصيلة أن يبارز في ميدان العلم والفكر والقلم علماء ودعاة

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.
(٢) سورة النصر، الآيتان: ١-٢.

ومنظري الرأسمالية، والماركسية، خصوصاً منها (الديالكتيكية) الجدلية بزعامة (هيجل وكارل ماركس) الفيلسوفين، الذي أطاح بنظريتهما في المعرفة، والمفهوم الفلسفي للعالَم، وجعلها تحت عاصفة فكره الأصيل كورق الخريف تراه مصفراً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[1].

وهكذا قد أتى على جميع الفلسفات القديمة والحديثة والنظريات منها المادية والميتافيزيقية، فلم تسلم كل هذه من مجهره ومرصده الدقيق صنيع عناية الله تعالى والمؤزر بالتوفيق والنصر غالباً ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّه﴾[2]، قد آتاه الله «الحكمة وفصل الخطاب»[3]، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[4].

فهذه نظريات وفلسفات (أفلاطون في مُثله واستذكاره، وأرسطو في مصادر التصديق عنده، وهيجل وكارل

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.
(٣) ص ٤٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

ماركس في جدلياتهما الديالكتيكية الخاوية، وجون لوك، وديكارت)، وغيرهم كثير من عمالقة النظريات المادية والفلسفية، قد تهاوت وسقطت تحت يراعه الذي تحول إلى بحر موسى عليه السلام فأغرق نظرياتهم وترك أقلامهم تطفو على سطح أوراقهم لتكون حجة عليهم ومَن رام وردهم، وحجة لصدر العلم والتقوى ومَن شرب من معينه الرقراق الذي لا ينضب بقدرة الله تعالى.

إن فكر هذا المقدس القديس قد تحول في ميدان المناظرة والمجادلة الصادقة مع هذه النظريات من عمالقة الفكر والفلسفة في القديم والحديث، تحول فكره الثاقب بعين الله سبحانه كعصى موسى عليه السلام تلقف ما يأفكون، بعد أن خلقوا من نظرياتهم دستوراً ومنهجاً يكرس قيمة المادة الصماء، وجعلوها تسير الكون وهي المبدِعة للعالَم وحتى الإنسان هو خاضع لنظامها في وجوده وتفكيره، لأنه جزء من العالم، وليس هناك شيء خارج المادة!!.

وهكذا **﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾**(١)، وأرادت الأرض أن تنتصر على

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٤٤.

السماء بذلك، والظلمة على النور، ومخالفة القوانين والسنن الإلهية **﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾**[(١)]، **﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾**[(٢)] .

إلا أن مارد الفكر الأصيل ورائده برز وانتفض من قمقم الفرات بجوار الأنزع البطين علي عليه السلام باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله، **﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ❖ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ❖ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾**[(٣)].

إنه النصر الساحق الذي حققه أستاذنا الإمام الصدر قدس سره في ميادين المعرفة على جميع المذاهب المادية والفلسفية الملحدة، وتحت موازين العلوم الحديثة النظرية والتجريبية، والعقلية الفلسفية الرصينة سواء على صعيد النظريات الاقتصادية، أو الفلسلفية، أو الاجتماعية، أو

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٣.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٤٥-٤٨.

السياسية، حتى لقد كان يخرج من كل هذه الميادين على أقرانه منتصراً يحمل لواء الإسلام، وصوته الملائكي قد ملأ الدنيا ثقة واعتزازاً «فلسفتنا، اقتصادنا، مجتمعنا» مما جعل الإنسان المسلم في موضع افتخار واعتزاز بما انكشف له من عظمة مفاهيم الإسلام على أيدي عمالقة الفكر والمعرفة في شتى ميادينها، كابن رشد، وابن سينا، والفارابي ، والمفيد، والإمـــام الخميني ، والخوئي، والمرتضى، والشيخ الأنصاري، والإمام الحكيم، والإمام محمد باقر الصدر الشهيد الأول قدس الله أسرارهم، ومثلهم كثير جداً، وإنما ذكرت هؤلاء العظماء على سبيل الذكر لا الحصر.

إن الحديث عن فكر ومدرسة هذا الرجل القديس لا تستوعبه صحائف أو صحف، فضلاً عن وريقات خجولة فضحها يراعي الذي كان في شوق شديد أن يصب عَبَراته أبحراً من أماقيه لينفس عن حرقة قلبه، وصبابة فؤاده، ويسكبها على صفحة سويداء وجدانه، فصرت

أسيره وبناني طوع إرادته، وقد أخذ من دموع عيني وصبابة فؤادي محبرته ليخط بها يراعه على صفحات قلبي، ويسطر بعض مكارم هذا القديس الذي ضاق به مجتمعه ولم يعرف شأنه وقدره أبناء زمانه.

إني لست في وارد أن أؤبن هذا العملاق وأن أُؤرخ حياته وشخصه الكريم، فإنّ عطاءاته وفيوضات مكارمه، ومدارك علومه وآرائه التي ناصرت الإسلام ورفعت رايته، وشدت من أزر المسلمين وعزهم هي أبلغ وأكبر من كل تأبين، وهي ذات قيمة عالية عند الله تعالى تؤبنه.

ولكن ما أكتبه أنا وأمثالي عنه ممن رآه وعايشه عن قرب، ففي بعض جوانبه يتسم بالدراية لا الرواية، وما كان منه عن رواية وهو قريب منه زمناً وَحَدثاً، وهذا بمجموعه يختلف من حيث القيمة والمردود النفسي على القارئ أو السامع، أو منهما معاً، ممن يتلقى الخبر ممن لم يعايش هذه الشخصية معايشة احتكاك مباشر، أو لم يكن في زمانه.

وخلاصة القول وزبدته أني أندب إخواني الأجلاء حفظهم الله تعالى ممن عاشوا شخصية هذا القديس وأشربوا في معالم وملامح حياته بكل أبعادها أو بعضها أن لا يألوا جهداً في إبراز كل معطيات أدوار حياته المتنوعة، ومعالم شخصيته المشرقة، فإن في كل هذا مردود إيجابي للأمة، ومفخرة ترفع رأسها في الحاضر والمستقبل، وهو تراث وكنز لا يجوز بحـــال أن تفرط فيه الأمّة.

وما هذا القديس وأمثاله من أبطال وعمالقة الفكر والقلم والسيف الذين ترجلوا التاريخ وشمروا عن ساعد الجد والإباء إلا إشراقة نور وهدى للأمة وعزّها يجب أن تمجدهم، فإنهم ذهبوا بعين الله وفي ذمة الله والتاريخ **﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾**[1].

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥

قد أغناهم الله تعالى عن كل الدنيا وما فيها بمنه وفضله.

إن لأستاذنا الشهيد الصدر الأول ﷺ مزايا في دنيا العلم والحياة تتمتع بها شخصيته العملاقة قل نظيرها إلا في عالم العظماء والأفذاذ حفظهم الله وحماهم برعايته، وأنا سأروي بإشارة خاطفة بعضاً منها:

١- علمه وفكره الثاقب الذي دل عليه الزمن ومحيطه، وأضداده الذين انحنوا له بإكبار وإجلال، وما ثروته العلمية التي تُدار في بعض جامعات العالم، ونظرياته الفلسفية والاقتصادية التي أطاح بها صروح المادية والفلسفات الماركسية (الديالكتيكية) القائمة على الجدل والتناقض، إلاّ خير دليل على ذلك، ومن أراد أن يعرف عمق ما أقول فعليه أن يراجع (فلسفتنا، واقتصادنا) إن كان من أهل الاختصاص ، ليرى العجب العجاب ، ويلمس الإخلاص والتقوى الذين وأمثالهما من ومضات حروفه وإشعاعات صدقه ووفائه للإسلام، فهو كأسد

الله حمزة في شجاعته وإقدامه، وتجد فيه نفحة من علي عليه السلام في شدة مراسه في ذات الله، وعلمه الجم، فقد بلغ رتبة الاجتهاد وهو في العقد الثاني من عمره، وبلغ بلوغه الشرعي ولم يحتج إلى التقليد لأنه بلغ وهو مجتهد[١]. فكانت نظريات منظري الاقتصاد والفلسفة، تتهاوى تحت يراعه المبارك، ويلقفها لسان قلمه، فكأنه ونظرياتهم عصى موسى وحبال السَّحَرة ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[٢].

وله مؤلفات ضخمة وقيّمة تربو على الثلاثين[٣].

٢- عبادته :

كان عابداً يتمتع بحضور قلب وروية عالية وملتزماً بالمستحبات وكثير من الأوراد، وكان ملتزماً بصلاة الليل

---

(١) من مقدمة فلسفتنا للسيد العلامة الحجة السيد محمد الغـروي أول تلامذة الإمام المقربين له بتصرف، ص ٢٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

(٣) من مقدمة فلسفتنا، الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ ، ص ٣٩.

في خلوته مع ربه سبحانه، وله تقديس لأهل البيت عليهم السلام ينم عن معرفة عالية بمقامهم الرفيع في نفسه، فكان ملازماً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في كل ليلة جمعة، وفي كل مناسبة بالرغم من كثرة مشاغله، وله زيارات لعلي عليه السلام في غالب الأيام قبيل الظهر وهو في ذلك كله خشوع وخضوع وبكاء، وكلمات تخرج من صميم وجدانه ضارعاً إلى الله سبحانه بفرج الإمام المهدي (عج) وسلامة المسلمين وقوت شوكتهم، وفي عمرته الرجبية عام ١٩٧٨م حينما زار قبر جده والأئمة عليهم السلام، استدبر القبلة ووقف عند وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وأنشأ الزيارة من عنده مؤكداً فيها (تبليغه الرسالة، وتحمله للجهاد والصعاب في سبيل الله ومضحياً براحته في سبيل المسلمين)[١].

ويقول السيد الحجة العلامة الغروي حفظه الله تعالى: (كما كان يذكرنا بأن أرض المدينة المجاورة لمقامه

---

(١) من مقدمة فلسفتنا للسيد العلامة الحجة السيد محمد الغروي من تلامذة الإمام المقربين له بتصرف، ص ٢٩.

الشريف كان موطأ أقدام رسول الله ﷺ والمسلمين الأوائل الذين صنعوا النصر متحملين الأذى والمشاق في سبيل الله، وإن هذه الرسالة المباركة لم تصلنا بالهين والسهولة)[١].

وقد لمست فيه تتئ توجهاً عجيباً، فقد كان يطيل في أداء الصلاة الفريضة جماعة، إذ صليت خلفه حينما كان يصلي في حسينية (الشوشترية) بمحلة العمارة النجف الأشرف في السبعينيات.

٣- زهــده :

إنك لتعجب حينما تقارن بين عظمة علمه وإبداعه وزهده وإعراضه عن الدنيا وهي بين يديه، وهذا من أسرار عظمته.

فقد كان زاهداً من الطراز الأول، وهو في زمن غير زمن الزهاد الأوائل.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٩.

إنه يتعمد البساطة في ملبسه ومشربه، وقد كيّف أفراد أسرته على ذلك، ولا يرضى إلا مواساة أبسط أفراد الطلبة، وهم في الغالب تحت خط الفقر، وأنا سأنقل لك وللتاريخ نماذج ضئيلة تدل على ذلك:

أ - يخرج الشيخ محمد رضا النعماني يوماً إلى السوق ليشتري بعض الضروريات وقد صحبه السيد جعفر وكان حينها صبياً دون العاشرة، ويعود أدراجه إلى البيت ومعه شيء من (الموز) فاعترض عليه السيد وبشدة، وهذا خلاف طبعه ودماثة أخلاقه قائلاً من أمرك بذلك وهل أن الناس في بيوتهم يأكلون (الموز) ؟

فاعتذر الشيخ بأن جعفراً طفل، ونفسه هفت على الموز!!

ب- كنت والحاج كاظم عبد الحسين حفظه الله تعالى من أهل الكويت جارنا في حسينية السبطين عليهما السلام بالسيدة زينب عليها السلام دمشق الشام على إفطار عندي، وقد تناولنا الحديث عن السيد وأخلاقه، وكنت أنقل له مشاهداتي عنه

ﺗﺪﺋﺮ وأخلاقه وزهده المثالي، فقال لي الحاج: أنا عرضت على السيد مبلغاً ليشتري له بيتاً فأجابني أن المال الذي تعطيني إياه سأجعله رواتب للطلبة، ثم قال لي: عدت بعد مدة من الزمن وقلت للسيد: أنني سأشتري لك داراً من أموالي الخاصة لا من الحقوق الشرعية. فأجابني قائلاً: إنْ تملّك كل الطلاب بيوتاً فأنا آخر من يتملك !!.

وفعلاً لم يملك عقاراً، إذ عاش طيلة حياته في بيوت مستأجرة، وآخرها دار الشيح المماقاني ﺗﺪﺋﺮ في محلة العمارة غرب حرم الإمام علي عليه السلام.

جـ- لم يترك في داره شيئاً من حطام الدنيا، وخصوصاً في ما يعود إلى الأموال العامة، بعدما علم أن المجرم صدام سيقتله ويبلغ بذلك درجة الشهادة، أمر بإخراج تلك الأموال إلى خارج العراق، فأخرجتها بيدي، وأخرجت أيضاً محاضراته في التفسير الموضوعي بصوته الشريف التي ألقاها في جامع الطوسي أواخر عمره الشريف، وكذا أخرجت خطابه بصوته المبارك

للشعب العراقي سنّةً وشيعةً عرباً وتركماناً وأكراداً والذي جاء فيه: (يا أبناء أبي بكر وعمر يا أبناء علي والحسين...) وذلك أيام الإقامة الجبرية والحصار الظالم عليه في منزله، وقد حقق الله ذلك على يديّ بفضله ومنه بعد أن استلمت كل ذلك بواسطة المجاهد العلامة: الشهيد السيد محمد علي الحائري (قدس) أخ آية الله السيد كاظم الحائري حفظه الله، والمرحوم العلامة المجاهد السيد عبد العزيز الحكيم (قدس) وقد أخرجت كل ذلك حسب وصية الإمام الصدر (قدس) خارج العراق بواسطة الكويت.

د - قد رأيت في بعض مكاتباته لولده الوحيد من الذكور السيد جعفر الذي لم يتجاوز الحادية عشر من عمره حين استشهد والده ﷺ يقول له ما مضمونه: إنني لن أورث لك شيئاً من متاع الدنيا، كما أن أبي لم يترك لي شيئاً من ذلك !!

إنه الزهد الصادق الذي سرى في كل كيانه ووجدانه، إنك ترى في هذا القديس سلوك محمد ﷺ وعلي عليه السلام وأصحابه البررة بامتياز.

إنه زهد من الطراز الأول في عالم اليوم اليوم اليوم!!

٤- أخلاقــه :

إن من يملك الصفات الآنفة الذكر ومنها الزهد عن وعي وروية، فمن نافلة القول والمقال انه يملك أخلاقاً، إنه آية في الأخلاق والتواضع كما غيره كثير من مراجع الدين العظام والحمد لله.

إنه كله ابتسامة وبشاشة تخجل النسيم في رقته، يبش ويهش في وجه الصغير والكبير، وهو في ذلك مع كل شرائح المجتمع على حد سواء.

إنه مليء بالحنان والعاطفة الجياشة بصدق وهو في كل ذلك من الجميع على مسافة واحدة، يتمثل ويمثل رسول الرحمة (وهو فينا كأحدنا) وأنت لا عليك إلا أن تقرأ بعض أخلاقه فيما ما يلي:

أ- إنني وإن نسيت لا أنسى مقولته لأبي رحمهما الله تعالى بعد أن جمعت بينهما في حرم الإمام الحسين عليه السلام

في النصف من شعبان عام ١٩٧٨م حينما احتضنه وضمه إلى صدره الشريف ووشحه بابتسامته العذراء وكلماته الملائكية قائلاً: (الشيخ حسين وحسن ولداي وقرة عيني) إن من يقترب منه يرى كنزاً ولذة تنعش قلبه، وحناناً أبوياً صادقاً لأبناء أمته.

ب - نقل لي الأستاذ الحاج محمد علي قهوجي حفظه الله، وهو يعمل في سفارة جمهورية إيران الإسلامية بدمشق منذ ثلاثين سنة تقريباً، أنه كان مع أخيه الأكبر في محل سمانة (غذائية) في سوق العمارة بالنجف الأشرف وكان يمر عليهم السيد ﵀ في طريقه ذهاباً وإياباً، وقد صادف في يوم أن اللبن الناشف قد سقط من الطّاولة على الأرض، وفي هذه الأثناء مرّ السيد ﵀ بطريقه، فسأله أخي عن الحكم الشرعي لهذا اللبن الواقع على الأرض، فأرشده السيد وذهب، ثم بعد دقائق أرسل السيد خادمه، وبيده مبلغاً من المال، فسأله أخي لماذا؟ فأجاب الخادم أن هذا عوضاً عما خسرتم في اللبن، فأخذنا المبلغ وإذا به يساوي قيمة كل اللبن مرتين !!

إنه خلق نبوي بعد خلق القرآن الكريم، الذي يقول تعالى: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾**[١]، وقال **﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**[٢].

جـ- اهتمامه البالغ بشؤون الأمة ورفعتها، والحفاظ على العلم والعلماء، خصوصاً حاضرة العلم النجف الأشرف بواحتها الدينية .

فإنه أيام التسفير الغاشم والعبث بالحوزة العلمية من قبل النظام البائد عام ١٩٧٠م و ١٩٧٥م وتسفير العلماء والمجتهدين لإجهاض منعة الأمة بكسر شوكة علمائها انتفض رجل الأمة، إنه أمة في تطلعاتها وهمومها وآلامها وآمالها **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً﴾**[٣].

إن أخلاقه وانقطاعه إلى الله تعالى كانا يأبيان عليه الجلوس في البيت ويترك قلب الأمة النابض (الحوزة العلمية) لعبة بأيدي العابثين، لتكون الأمة جسداً بلا روح.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

فما كان منه بعد رحيل الإمام السيد محسن الحكيم ﭬ عام١٩٧٠م إلا زيارة المراجع والمجتهدين آنذاك لتوحيد الموقف ولم الشمل في استخراج فتوى بحرمة الخروج والانصياع لأوامر النظام.

ومن المعلوم أن خلاف هذا الأمر وخروج العلماء من النجف قد يكون لصالح مرجعيته ﭬ، ولكنه ليس في وارد هذه الأطر الضيقة البخيسة!

د- شجاعة وإباء.

إنه شجاع في محاربة عدوه الداخلي والخارجي، لقد تمكن ﭬ من تأديب نفسه وترويضها قبل تأديب غيره، وله في هذا الجانب براعة وتوفيق باهر لصدق نيته مع الله، وقد ألمحت شيئاً من ذلك في زهده آنفاً وفي حمل هموم الأمة.

إنه أول من أيّد الثورة الإسلامية في إيران من المراجع خارج إيران وفي داخل العراق بالخصوص في وقت لا يتمكن فيه أحد أن ينبس ببنت شفة، فقد رفع صوته بالمناصرة والتأييد وقال قولته المشهورة: (ذوبوا في الإمام

الخميني كما ذاب هو في الإسلام) ووضع كل مقدراته تحت رغبة الإمام ﷺ وقال ما مضمونه: لو أرسلني عاملاً في إحدى القرى لذهبت!

وهو المرجع الديني، وهو الذي يعيش التهديد بالقتل والإبادة، وهذا ما حصل بالفعل، فقد اعتقل فجر يوم الثلاثاء ١٧ رجب ١٣٩٩هـ الموافق ١٩٧٩/٦/١٢م وقد أخبرت بذلك العالمة الفاضلة أخته الشهيدة آمنة بنت الهدى رضوان الله عليها حين وجهت خطابها صباح ذلك اليوم لعلي عليه السلام باعتقال أخيها، فانتشر الخبر حينها وقرر تلامذة الإمام الصدر ﷺ وأعرف في مقدمتهم الحجة العلامة الفاضل السيد علي أكبر الحائري أخ آية الله السيد كاظم الحائري حفظهما الله، والسيد صدر الدين القبانشي، وتم الاتفاق على الحضور والاجتماع وقراءة القرآن ودعاء الفرج عند الساعة العاشرة في الصحن الحيدري جهة القبلة، انطلقنا في لمة يسيرة من رجال الدين أقل من أصحاب بدر في جو معقد حتى الأنفاس تكتمت فيه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

وحصل الاصطدام مع رجال الأمن حين خرجنا من الصحن الحيدري عند مؤسسة الأرزد باك في أول شارع الإمام الصادق عليه السلام، وعين الله ترعانا حتى دخلنا سوق الكبير ونحن نطالب بإطلاق سراح الإمام الصدر قدس سره وتعزيل السوق احتجاجاً.

وتحت محاصرة التظاهرة في السوق الكبير بإطلاق النار وانقضاض جلاوزة النظام، اعتقل من اعتقل وجرح من جرح، «وجرى القضاء لهم بما يرجى له حسن المثوبة»[1].

وجرحت حينها ولكن الله تعالى خلصني من محاولات الاعتقال أكثر من مرة :

الأولى: عند المسجد سوق المسابك وجرحت حينها وسالت دمائي.

الثانية: في شارع الإمام الصادق عليه السلام بعد أن سلمت من الأولى وقعت في الثانية بمحاولة كسر يدي واعتقالي وكان هذا ديدنهم في الاعتقال حينها إلا أن الله تعالى قد خلصني ونجاني بفضله ومنّه، ولغاية وشأن كان يريده سبحانه، وقد أظهر لي ما خفي علي أمره بعد ذلك.

---

(١) من دعاء الندبة.

الثالثة: وكانت هذه المرة التي نجاني الله تعالى فيها من قبضة اعتقال المجرمين.

وذلك بعد أحداث النجف الأشرف وتظاهرة ١٧ رجب ١٣٩٩هـ التي أجبرت النظام على إطلاق سراح الإمام الصدر ﭭ في نفس اليوم قهراً، ذهبت في تلك الظروف إلى كربلاء أكثر من مرة أيام الحصار والشدة، وولد لي حينها في ٧ شعبان ١٣٩٩هـ ولدي الشيخ محمد (أبو مهدي).

ومنها في محرم الحرام أيضاً حين اشتد الحصار على الإمام الصدر ﭭ سكنت في دارنا قرب حرم العباس ﵇ وإذ بأزلام النظام ليلة العاشر من محرم الحرام ١٤٠٠هـ تسوروا عليّ الدار ليلاً من سطحها فأخبرتني بذلك زوجتي أم مصطفى، وقالت لي: **﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾**(١).

فخرجت منها خائفاً أترقب لحوق القوم بي وأقول متمتماً: **﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**(٢)، وهذا ما تحقق لي بحمد

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢١.

الله سبحانه، حيث وصلت المخيم حينها (مخيم الإمام الحسين عليه السلام) برجليَّ راكضاً في نَفَسٍ واحد عند إخواني وأهلي من الزوار، كان منهم ابن عمتي (الحاج سلمان العبد الله) وبعد أن قصصت عليهم القصص قالوا لي: **﴿لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**[١]، **﴿لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾**[٢].

فله الحمد دائماً على كل حال متى قلت له الحمد، فلا ينقضي حمدي وشكري له ما دام لي نَفَسٌ ورمشة عين، إلى أن تَأْخُذَني منه سِنَة أو نوم، أو يأخذني إليه فتحمده ذرات تراب قبري !

هـ- الخاتمة الطيبة :

استجاب الإمام السيد الصدر الشهيد الأول لنداء ربه يوم الثلاثاء أو الأربعاء ٢٢ أو ٢٣ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ الموافق ٨ أو ١٩٨٠/٤/٩م[٣]، وهو بعد لم يكمل العقد

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٧.

(٣) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة، أحمد عبد الله أبو زيد، ج٤، ص ٢٨٢.

الخامس من عمره الشريف، حيث كانت ولادته الميمونة ٢٥ ذي القعدة ١٣٥٦هـ الموافق ١٩٣٥/٣/١م محلقاً في أجواء الشهادة ومتسربلاً وشاحها الإلهي في جنان الخلد.

إنها الحياة التي لا تعب ولا نصب فيها، إنها حياة الدوام والسعادة الأبدية **﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾**[١].

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾[٢].

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ❖ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾[٣].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ❖ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾[٤].

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٥.

(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ١٢-١٣.

(٤) سورة الإنسان، الآيتان: ١٧-١٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾(١).

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ❖ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ❖ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ❖ وَمَاء مَّسْكُوبٍ ❖ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ❖ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ❖ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾(٢).

إنها والله نفسه الطاهرة من النفس المطمئنة التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ❖ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ❖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ❖ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(٣).

إنه لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد أن دخل معترك الجهاد وشمر عن ساعد المواجهة، وطلق الدنيا ثلاثاً لا رغبةً له بالعودة إليها، فكان في مواجهة الطاغوت يهزأ بكل ألوان جبروته وتهديداته حتى الموت بعد أن أمضى ما يزيد على عشرة أشهر في منزله تحت الإقامة الجبرية، إذ قطعوا عنه جميع الإمدادات وأجروا المياه تحت الدار كالطوفان ليسقطوها على ساكنيها ومناه صدّام بكل مقدرات الدولة

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢١.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٢٨-٣٤.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

ونعيمها إن مال عن خطه الجهادي ولو بأدنى صورة من ذلك وكان يقول ﷺ في جوابه على رسالة صدام بعد وعده ووعيده له بما فحواه: (وهل لديك شيء أقسى من الموت تهددني به فإني لا أخشاه !).

فالسلام عليك سيدي أبا جعفر بورك لك ولأمتك يوم مولدك، ويوم حييت وعشت القرآن والسنّة الصادقة في سلوكك ونضالك، ويوم رحلت من الدنيا إلى ربك حياً محلقاً في سماء الشهادة مع الشهداء والصديقين والنبيين والأئمة الطاهرين عليهم السلام ويوم تبعث حياً.

وقد ترك السيد المقدس (رضوان الله عليه) لنا ثروة كبيرة تتمثل في بعدين:

الأول: في تلامذته، فقد خرَّجت مدرسته المباركة علماء ومجتهدين ومراجع أفذاذ منهم على سبيل الإشارة لا الحصر:

١- آية الله العظمى المجاهد السيد محمد صادق الصدر الشهيد الثاني ﷺ وهو من المراجع الكبار، له باع طويل في

فنون الجهاد كأستاذه الامام الصدر تدّس وهما في جهادهما (تعدد أدوار ووحدة هدف) وحينما تقاطعت مصلحة السلطة الغاشمة وأحست بالخطر مع أهدافه ونضاله قامت باغتياله ونجليه ٤/١١/١٤٢٠هـــ- ٩ شباط ١٩٩٩م وللسيد الشهيد تدّس إنتاجات علمية واسعة وعميقة في التاريخ والفقه، والأصول وفي علوم أخرى هي موضع اعتزاز الأمة الإسلامية .

وكنت أقرأ له في أواخر السبعينات، ومنها موسوعة الإمام المهدي (عج) وهي جديرة بالدراسة والاعتزاز لعمقها ودقة تحليلاتها العلمية.

فالسلام عليك يوم ولدت ويوم استشهدت ويوم تبعث حياً.

٢- العلامة الحجة المجاهد الشيخ محمد علي التسخسري وهو مؤلف وكاتب بارع ومن دعاة الوحدة والتقريب وموضع اعتماد الإمام السيد الخامنئي في مسؤولية ذلك.

٣- العلامة الفاضل المجاهد الشيخ حسن عبد الساتر كان رئيس القضاء في لبنان وله دورة تقرير أبحاث الإمام الصدر تدّس في علم الأصول راقية عالية جداً، وللشهيد الصدر تدّس معه مكاتبات.

٤- العلامة الفاضل الحجة الشيخ حسن طراد من علماء لبنان المبرزين .

٥- أستاذي: آية الله الفذ المجاهد الشهيد السيد محمد باقر الحكيم ﷺ عضد الامام المفدى الذي حمل راية الجهاد والدفاع وهو امتداد أصيل لمواقفه. كان يقول لي في إصراره على العودة إلى العراق الجريح بعد سقوط صدام ٢٠٠٣م حينما حذرته القتل عشية العودة من إيران : (... لي أسوة حسنة بمن سبقني) طالباً الحق مهما كلف الثمن ولو الشهادة[١].

٦- العلامة المجاهد المرحوم السيد عبد العزيزالحكيم (قدس) الذي وفى بالمسيرة وسار على الدرب[٢].

---

(١) كان بيني وبينه محادثات وزيارات متكررة في منزلـه بـالنجف الاشرف بعد استشهاد الامام الصدر (قدس) مباشرة في شـهري رجب وشعبان ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠م قد أثمـرت وأينعـت بفضل الله ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ إبراهيم ٢٥.

(٢) اجتمعت به، وعائلتي بعائلته في منزله بدار والده الامام السيد محسن الحكيم ﷺ أكثر من مرة، منها في شهر شعبان ١٤٠٠ هـ =

٧- أستاذي: آية الله العظمى المجاهد السيد كاظم الحائري حفظه الله، له أبحاث في علم الأصول والفقه وهو من المراجع ومن تلامذة الإمام الصدر ﵀ المقربين عنده.

٨- أستاذي: آية الله العظمى الفقيه المجاهد السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، كان رئيساً عاماً لقضاء الجمهورية الإسلامية في إيران لسنوات عديدة ومن المعتمدين لدى الإمام السيد الخامنئي.

ولا يخفى على أحد أنه كان من تلامذة الإمام الصدر ﵀ المبرزين والمعتمدين عنده، وقد رأيت الامام الصدر ﵀ مراراً وفي أوقات مختلفة يخرج من منزل السيد الهاشمي بالنجف الأشرف والكتاب تحت إبطه الشريف، مما يدلك على عظيم منزلته عنده ومقامه العلمي المتميز.

وله أبحاث أصولية قد ألقاها في قم المقدسة من تقريراته للإمام الصدر﵀ (بحوث في علم الأصول ٧ مجلدات) قد

= الموافق ١٩٨٠م وكانت بيني وبينه محادثات طيبة مثمرة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا﴾ [الرعد : ٣٥]، ﴿كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء﴾ [إبراهيم : ٢٤].

تشرفت حضورها في الثمانينات حتى مغادرتي إيران، كما حضرت بحثه الفقهي حفظه الله تعالى، ووجدت فيه دقة المطالب العلمية، وسرعة الاستحضار والاستذكار لها بالرغم من كثرة مشاغله.

إنه حفظه الله تعالى له الأهلية واللياقة الكافية لأن يدخل ساحة المرجعية الرشيدة ويرفدها، ويحميها كما بقية المراجع العظام والآيات الكرام أيدهم الله تعالى وحماهم وسدد خطاهم عزاً للإسلام والمسلمين وستكون مرجعيته قرة عين ووفاء للإمام الشهيد الصدر الأول قدس سره.

٩- السيد النجيب المجاهد العلامة الفاضل محمد الغروي صديقنا وحبيبنا، له علاقات حميمة وودية ووفية مع أستاذه الشهيد الأول قدس سره ، وله صحبة طيبة مع الإمام المغيب السيد موسى الصدر فرج الله عنه، والآن فعلاً ومنذ سنين يقيم في مدينة صور لبنان ومن فضلاء وأساتذة الحوزة.

١٠- أستاذي: العلامة الفاضل المجاهد السيد عبد الغني الأردبيلي (رحمه الله) وكيل الامام الصدر الشهيد الأول قدس سره في إيران.

غادر النجف الأشرف عام ١٩٧٥م وقد حصل على وكالة منه (رضوان الله عليهما) في٢٣ شعبان ١٣٩٥هـ وقد وافاه الأجل راحلاً إلى ربه في حادث سير مؤسف في ٢٨ رجب ١٣٩٧هـ[١].

ورأيت بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين السيد الشهيد ﷺ كانت تفيض بالاحترام والحنان.

لقد وفقت آنذاك وقبل سفره أن أدرس على يديه في كتاب (اقتصادنا، وفلسفتنا) بتوجيه أبوي كريم من السيد الإمام الشهيد الصدر ﷺ، وذلك في غرفة مقبرةٍ شمالية من الصحن الحيدري، علماً أن مثل هذه الدروس لم تلاقي ترحيباً طيباً في جامعة النجف آنذاك !.

البعد الثاني: يتمثل في علمه وفكره الثاقب في شتى العلوم والمعارف الواسعة التي أودعها بطون كتبه ومؤلفاته الرصينة وقد ألمعت آنفاً أن ما ظهر منها و برز يربو على ثلاثين مؤلفاً في بحار العلوم ومحيطاتها.

---

(١) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة، ج٣ ، ص ٣٧٢.

ومن هذه الفيوضات المباركة، والعلوم المقدسة علم الفلسفة الميتافيزيقية الاسلامية، التي أراد من خلالها هدم ما بنته الفلسفة المادية وخصوصاً منها الديالكتيكية الملحدة في فهمها الخاوي عن العالم والكون الذي أرجعت كل شيء فيه إلى المادة، ورفضت جميع المبادئ العقلية وضربت بها عرض الجدار، ونفت ماوراء المادة.

إلا أنه ﷺ تمكن بقدرة الله تعالى بعد التوكل عليه سبحانه في كتابه «فلسفتنا» أن يجعلها في مصاف فرعون والفراعنة محنطة في متحف التاريخ جسداً بلا روح، وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾**[1].

وقد ترك هذه النظريات المادية مسجَّاةً في تابوت الزمن عبرة وآية لمن بعدها كفرعون الذي رفض بجبروته أن يكون للكون والعالَم إلهٌ غيره **﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ**

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٠.

الْمُسْلِمِينَ ❁ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ❁ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[1].

وما على أصحاب هذه النظريات خصوصا الديالكتيكية منها، بعد أن وضعها على خشبة العمليات الدقيقة والقوانين الفيزيائية الحديثة، وأدخلها المصانع التجريبية المسلمة عندهم، وحاكمهم على ضوء مبادئهم التي بنوا عليها الديالكتيكية إلا أن يقولوا كما قال فرعون حين أدركه الغرق **﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـــهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾**.

وما هذا السفر الصغير الذي بين يديك الكريمتين إلا محاولة متواضعة لكشف الحقيقة المطلقة الدائمة التي نروم منها الوصول إلى معرفة المبدأ الأعلى لهذا الكون والعالَم، ومن هو الذي تنتهي إليه جميع العلل ولا تستغني عنه أبداً ؟

والضالة المنشودة لك في هذا كله هو كتاب (فلسفتنا) الينبوع الرقراق والمعين الصافي الذي سيسقيك به شراباً

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٩٠-٩٢.

سلسبيلاً، وينقل من كان ملحداً أو مشركاً إلى الإيمان بالله تعالى والإخلاص له، الذي ستجد فيه ما يسرك ويروي ظمأك للوصول إلى معرفة الحقيقة.

وقد اقتطفت وارتشفت لك من بحره الزاخر قطرة عذبة، ومن جنته الغنّاء وردة فواحة لتروي ظمأك بها فتحيى، وتعطر أنفاسك بعَبَقِ أريجها الشَّذِي، فتنتعش معها روحك وينفتح لها قلبك وفؤادك.

وما هذه الوردة الندية من جنته الوارفة بضلالها، والقطرة من معين رقراقه العذب إلا مقتطفاتٍ انتقيتها واخترتها لك من أبحاث فلسفية راقية هي بمجموعها عقد جمان (فلسفتنا) استلهمها ﷺ من شعاع كتاب الله تعالى ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[1].

فليس لي ولك عن عِقد جُمانه المنضود غنى عن جماله، ولا مندوحة لي ولك في الإعراض عنه، وهو يتمثل في بحثين:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

البحث الأول: **(نظرية المعرفة)** .

البحث الثاني: **(المفهوم الفلسفي للعالم)**.

أما فيما يرتبط **بالبحث الأول: (نظرية المعرفة)** خصوصاً فمسؤوليته بالتحديد تقع في أمرين أساسيين :

الأمر الاول: أن المقياس الاول في التفكير البشري الذي به تكتسب المعارف ويحصل به الجزم واليقين التصديقي إنما هو مرده العقل ليس إلا ، وحتى ما يقال ويدَّعى من أن رصيد المعارف البشرية عند التجريبيين هي التجربة وأنها المقياس في ذلك، فإن هذا في حقيقته يعود إلى تطبيق المقياس العقلي (ولا غنى للنظرية التجريبية عن الرصيد العقلي)[١].

الأمر الثاني: إننا سوف ندرس فيه قيمة المعرفة البشرية، وهل أن المعرفة هذه لها قيمة علمية فيجب الأخذ بها أو لا؟

إنك ستجد بعد الدراسة والتحقيق أن (المعرفة) لاقيمة لها علمياً إلاّ على ضوء المنطق العقلي القائل بأن مصدرها ومردها العقل حتى ولو دخلنا بها المخابر التجريبية، فإنها محتاجة وخاضعة لسلطان العقل.

---

(١) فلسفتنا،كلمة الإمام الصدر ﷺ ص٤٣، ط٣ دار التعارف ١٤٣٠هـ.

ولا تفلت من قبضته، بل ولا تستغني المعرفة التجريبية عن المعرفة العقلية الذي يعني أن كل ما لدى الإنسان من معارف وعلوم هي متحدِّرة من رحم المعرفة العقلية ، وتتغذى منه كما يتغذى الجنين من رحم أمه، (فالعقل) هو بمنزلة الأب و(المعرفة) هي الأم لكل العلوم والمعارف البشرية .

وسترى أن المنطق الديالكتيكي بنظريته في المعرفة المادية قد أنزلها من عرشها وسلطانها الأمومي، وبهذا المنطق بعدما سلبها أمومتها أصبحت العلوم والمعارف ضائعة بلا أصل وهوية وفاقدة للموازين والمبادئ العلمية العامة كمبدأ العلية، واستحالة اجتماع الضدين المتولدة من رحم المعرفة العقلية .

وعليه ففي الأمر الثاني الذي نبحث فيه عن قيمة المعرفة البشرية لن نجدها إلا في المنطق العقلي، ونفقدها في المنطق الديالكتيكي.

والدراسة والتحقيق في البحث الأول عن نظرية المعرفة إنما هو تمهيد ومقدمة لذي مقدمة مهمة وحساسة للغاية في علم الفلسفة تتمحور في بحثنا الثاني.

البحث الثاني: (**المفهوم الفلسفي للعالَم**) والذي نبحث فيه بعد بحث نظرية المعرفة عن مبدأ العلية ثم بالنتيجة عن المبدأ الأول للكون والعالَم وهو ما يعني ويساوي التوحيد والإيمان بالله تعالى (خالق ما يُرى وما لا يُرى) وهو الجزء الثاني.

وفي ختام هذه المقدمة أرجو أن أكون قد أعطيتك أخي الكريم! صورة موجزة عن شخصية الكاتب ﵀ والكتاب (فلسفتنا).

وها أنا قد جعلت بين يديك الكريمتين في هذا السفر الصغير بكل تواضع (نظرية المعرفة) و (مبدأ العلية) ودراستهما دراسة فلسفية موضوعية للنظريات الحديثة والقديمة المادية والميتافيزيقية للحصول على الجواب المقنع وما يتطابق والقوانين والمبادئ العامة المسلَّم بها لدى جميع أصحاب الفلسفة بعد عرضها على خشبة المسرح العام أمام المتفرجين من ذوي الخبرة والاختصاص ليروا من سيصل أولاً إلى حلبة الصراع مظفَّراً ؟.

أخي الكريم ! أقدم لك وريقاتي بحروفها وأسطرها الخجولة التي تحتضن في أعماقها خجالاتي واستحيائي من

الله تعالى ثم منك خوف أن لا تكون محققة الرضا والقبول، وأن لا تكون بالغة الغاية القصوى في شوطها الذي انطلقت من أجله عام ١٤٠١هـ-١٩٨٠م في حاضرة العلم ومصدر المعرفة مدينة (قم) المقدسة، وكاد هذا البحث كما غيره من الأبحاث أن يضيع تحت وطأت التزاحمات والأشغال حينها، ولكن وبعد عشرين سنة من مغادرتي حاضنة العلم (قم) المقدسة عدت أستنشق عَبَقَ الإمامة وأريج العصمة على بساط سيدي ومولاي الإمام الرضا عليه السلام ثامن أهل البيت وأخته (فاطمة المعصومة) عليها السلام عام ١٤٣١هـ-٢٠١٠م وأتحفني بهديته السنية بالعثور على هذه الأبحاث المتواضعة التي عدّلت وأضفت إليها بعض ما يلزم، ولا أقدر أن أصف لك حجم فرحتي بها، فله الحمد والمنّة، ولسيدي التكرم والامتنان.

وفي الختام أخي القارئ الأجل والأستاذ المبجل! أشكرك بعد الله تعالى، وأتمنى لك خالص دعواتي ، ولا تنساني أيام الإقبال على الله سبحانه في مناجاتك ودعواتك لي بالتوفيق في الأمور كلها.

أسألك سيدي وربي ومولاي أن تأخذ بنيتي وتجعلها في كل حرف بل وكل نقطة من يراعي سطرها خالصة لوجهك

الكريم وابتغاء رضاك والجنة وصالح المسلمين والإنسانية لاتباع دينك وإعلاء كلمتك.

اللهم تقبل سَفْري الضئيل هذا منك قبولاً حسناً واجعله مورد عنايتك ورضاك ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾(١).

اللهم ربي وسيدي اجعله لي نوراً وثقلاً في ميزان حسناتي يوم ألقاك، يوم الطامة والقارعة والصاخة والآزفة والحساب والقيامة ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ❖ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٢).

اللهم واجعل أجر كل ذلك بمنك ولطفك لوالدي الحاج ملا علي بن الحاج ملا راضي بن الحاج ملا محمد علي، ولوالدتي الحاجة حليمة حسن المحمد صالح، مربية الأيتام، وملازمة الحج والعمرة أكثر من خمسين عاماً جنباً إلى جنب والدي حتى وافاها الأجل في حج ١٤١٧هـ ووفقتُ بدفنها بالبقيع الغرقد تغمدها الله بواسع رحمته ولطفه بإذنه تعالى.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨-٨٩.

ولولدي عبد الله قرة العين ودرة القلب المشغول في حينه بحفظ القرآن المبين حتى وافاه الأجل، وبعد لم يتجاوز ربيع عمره الثاني عشر في سورية بعد الوالد بشهر وثلاثة أيام وبجواره في دمشق السيدة زينب عليها السلام ٧ جمادى الآخر ١٤٢٥هـ الموافق ٢٠٠٤م.

اللهم واجعل أجر كل ذلك بفضلك ولطفك لمن كان سبباً لعملي المتواضع (أستاذي وقرة عيني الإمام السيد محمد باقر الصدر الشهيد الأول) قدس سره[1] وآية الله الشهيد السيد حسن مهدي الشيرازي الذي استشهد في طريق إقامته أربعينية

---

(١) لم أنسه في خلواتي وتضرعاتي إلى الله تعالى من قراءة القرآن والحج والعمرة والصدقات والنوافل دوما منذ استشهاده في عام ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠م وإلى لحظتي هذه ٢٧/٨/ ٢٠١٠م غروب يوم الخميس ١٥ رمضان١٤٣١هـ وفاءًا مني له ، ولأستاذي آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم قدس سره وجميع أساتذتي ومن وجب له حق عليَّ.

الإمام الصدر في لبنان[1]، وعضده المفدى الشهيد آية الله السيد محمد باقر الحكيم تتئن وجميع أساتذتي (ومن يعنيني أمره).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين (نحمده على ماكان، ونستعينه من أمرنا على ما يكون، ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان)[٢].

(والحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، الدال على قِدَمِه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده...، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصفي، وأمينه الرضي صلى الله عليه وآله)[٣] مصابيح الدجى وأعلام الورى نجوم الأرض وأمانها، و﴿... **كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف**

---

(1) بتاريخ ١٦ جمادى الثاني ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠/٥/٢م.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ٩٩.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٨٥، ط انتشارات هجرت ١٣٩٥هـ د. صبحي الصالح.

عنها غرق وهوى)[١] والسلام والتحيات الزاكيات على أصحابه الأخيار الأبرار ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

العبد الغارق في هواه والمفتون بدنياه

أبو آدم

حسن علي الراضي العبد الله

دمشق السيدة زينب عليها السلام

١٥ شهر رمضان المبارك ١٤٣١هـ

٢٠١٠/٨/٢٧م

---

(١) حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٧.

تمهيد

إن الله سبحانه خلق من ضمن ما خلق الإنسان، الذي أكرمه واختصه دون مخلوقاته بمواهب وطاقات تميزه عمن سواه وأودع فيه القوى والقابليات، إنه أودع فيه العقل الذي يمتاز به عن غيره من الحيوانات الصامته، العقل الذي يميز به الحق من الباطل والخبيث من الطيب، وبالعقل يثيب ويعاقب، وما ذاك إلا لما أودع فيه من القوى والأسرار العجيبة .

إن الإنسان بالعقل يدرك الأشياء التي يحسها ويرجع بها إلى أسبابها بفطرته التي فطره الله عليها، وبالفطرة يسأل عن كنهِ الأشياء ومصادرها، وهذا الشعور والإدراك ليس من آثار العقل فحسب.

فإن حالة التساؤل والرجوع بالشيء إلى سببه ومصدره لا يختص به الإنسان،فهذا الحيوان الذي لا يملك العقل والتفكير سوى الإلهام والفطرة، تراه حينما يسمع صوتاً من ورائه لا يكتفي بسماعه بل يلتفت إلى مصدر الصوت،وما هذا إلا لمعرفته بأن الصوت لم يحصل صدفة ومن لا شيء.

وهذا الطفل الصغير حينما يفتح عينيه ويجول بهما في هذا الكون الرحيب الذي يعجُّ بالآيات الدالة على خالق الكون، وينظر من حوله أبويه وإخوانه الصغار والكبار ويرى النجوم والكواكب السيارة والسماء وزرقتها، والنبات والحيوان، إنه بعد كل هذا يطرح عدة أسأله يضيق بها صدره وتنطوي عليها نفسه لماذا؟ ومن؟ وأين؟ وهذه الأسئلة المتنوعة والمختلفة كيفا،انبثقت بغريزة الفطرة التي تسند المسببات إلى أسبابها والمعلول إلى علته.

إن هذه الأسئلة المطروحة لم تكن نتيجة الصدفة ومن لا شيء، فإن هذه الأسئلة لها سبب انبثقت منه، ليس هو إلا

الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إن الصدفة تعني عدم العلة والسبب، إنها تعني عدم التكرار من كل إنسان يجول ببصره في الكون، إن الصدفة لا تعني طرح هذه الأسئلة من الطفل الذي يعيش في مختلف القارات والبيئات بما تحويه من لغات متعددة ومستويات في الذكاء والفطنة. إن هذه الأسئلة المطروحة بشكل لا تختلف في جوهرها من طفل لآخر مع البون الشاسع والاختلاف الواضح في البيئة والإقليم .

والفطنة والذكاء لا يمكن أن تفسر على أساس الصدفة،فإنا إذا ما أخذنا بحساب الاحتمالات ومعادلاتها فإن وقوع هذه الأسئلة من طفل لآخر يباينه في كل المستويات البيئية والإقليمية واحد على مئات الملايين ،وهو بقيمة واحد من آلاف الأصفار والناتج هو صفر،فالصدفة على هذا لا تساوي صفراً فضلاً عن واحد بالمئة الذي لا قيمة له.

وخلاصة القول في ما نقول أن من المسلمات عند كل متحرك حساس فضلاً عن الإنسان الذي آتاه الله سبحانه

طاقات تميزه عن غيره،أن كل شيء له سبب،ويستحيل بحكم الفطرة أن يصدر شيء من لا شيء،فما بالك بحكم العقل في هذا الباب.

إن سؤال لماذا؟ يواجه الإنسان في كل أدوار الحياة وعلى جميع المستويات بل في الحقول العلمية المختلفة يواجه هذا السؤال بإيعاز من الفطرة التي لا يمكنه أن يفلت من قبضتها والجواب على سؤالها بما أوتي من حظ وافر في حدود موضوع السؤال .

وما الجواب في الحقيقة إلا بيان علة موضوع سؤال الفطرة ،فسؤال من الذي أوجد الكواكب؟ إنما هو سؤال طرحته الفطرة على الإنسان،وهو يرمز إلى السؤال عن العلة،وهنا يجيب الإنسان بدوره عن هذا السؤال، فيقول إن علة الكواكب والكون هو الله سبحانه، إن الإنسان هو أفضل موجود في الكون وسخر له الذرّة يفعل بها ما يشاء بما أوتي من طاقات ومواهب،ولكنه ما تمكن هذا الإنسان أن يصل إلى هذه الكواكب فضلاً عن أن يوجدها، إذاً هناك قدرة خلاقة حكيمة وراء هذه الكواكب وليست هي إلا قدرة الخالق .

إذاً يتضح من هذا أن العلية ضرورية لكل شيء في الكون يحس أو لا يحس سوى علة العلل والذي تنته إليه الأسباب، ونحن نذكر ما قاله أستاذنا الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر بهذا الصدد : « إن من أولويات ما يدركه البشر في حياته الاعتيادية مبدأ العلية القائل : إن لكل شيء سبباً وهو من المبادئ العقلية الضرورية لأن الإنسان يجد في صميم طبيعته الباعث الذي يبعثه إلى محاولة تحليل ما يجد من أشياء وتبرير وجودها باستكشاف أسبابها وهذا الباعث موجود بصورة فطرية في الطبيعة الإنسانية، بل قد يوجد عند عدة أنواع من الحيوان أيضاً، فهو يلتفت إلى مصدر الحركة غريزياً ليعرف سببها ويفحص عن منشأ الصوت ليدرك علته.....»[١].

وقد قسمت موضوع هذا الكتاب الذي بين يديك إلى عدّة أقسام رئيسية ليسهّل على القارئ الكريم استيعاب موضوع كل قسم وربطه بما بعده.

---

(١) فلسفتنا ، ص ٣٠٢ و ٢٦١ – طبعة أولى.

وأستميح القارئ المبجل عذراً إنْ لمس ووجد في طرحي بعض التعقيد فإني لم أقصده، بل إنني كتبت ما كتبت بدافع الإيضاح والتوضيح، ولكن طبيعة فلسفة الموضوعات هذه تأخذ حيزاً واسعاً من فكر الإنسان وجهده وعصارة أفكاره.

ولا تتقوّم الفلسفة بطبيعتها إلا بهذا العمق والانغلاق الرمزي الذي يحتاج فكه إلى جهد وعطاء فكري يعصر ذهنه حتى يهبه ويعطيه مخزونه العلمي، فيجد صاحبه لذة ما بعدها لذة في الوصول إلى الحقيقة الدائمة والحق المطلق سبحانه، وهو الغاية من دخول بحر الفلسفة وركوب سفينته للوصول بها إلى النجاة،

والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على باب الرسالات والرسل محمد ﷺ وصحبه الذين هم خاتم الأوصياء البررة، عليهم جميعاً صلوات ربي وتحياته.

أبو آدم

حسن الراضي

دمشق الشام / السيدة زينب عليها السلام

١٥ /شعبان الخير/ ١٤٣١هـ

القسم الأول

(مبدأ العلية)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى

ضرورة مبدأ العليـة

أشرنا في طيات كلامنا عن العلية أنها ضرورية لكل جوانب الحياة،والآن نريد أن ندرس هذا الجانب بشكل مفصل وقبل الدخول في صلب الاستدلال نقول أن مبدأ العلية، هو ضروري لكل مناحي الحياة على الصعيدين الحسي واللا حسي :

الأول قيمة مبدأ العلية على الصعيد الحسي :

ويمكن أن ندرس هذه القيمة ومعرفتها في جانبين:

أ - الجانب التجريبي.

ب - الجانب العلمي النظري.

وقبل الدخول في البحث عن احتياج هذين الجانبين لمبدأ العلية، لا بد من بيان مقدمة يحتاج لها كل من الجانبين ويشتركان فيها،بل تقوم دعائمهما عليها ولا قيمة لهما بدونها، لأن جميع النظريات العلمية في ميدان التجربة والمشاهدة (تتوقف بصورة عامة على مبدأ العلية وقوانينها توقفاً أساسياً. وإذا سقطت العلية ونظامها

الخاص من حساب الكون، يصبح من المتعذر تماماً تكوين نظرية علمية في أي حقل من الحقول)[١].

فإذاً المقدمة ضرورية لقيام العلة وصحة أي نظرية علمية تجريبية تقوم على العلية.

والمقدمة تتكون من ثلاثة قوانين:

الأول: مبدأ العلية القائل: (إن لكل حادثة سبباً)[٢].

الثاني: قانون الحتمية القائل : (إن كل سبب يولد النتيجة الطبيعية له بصورة ضرورية ولا يمكن للنتائج أن تنفصل عن أسبابها) [٣].

بمعنى التعاصر بين العلة والمعلول وعدم انفكاك المعلول عن علته.

الثالث: قانون التناسب بين الأسباب والنتائج القائل: (إن كل مجموعة متفقة في حقيقتها من مجاميع الطبيعة،يلزم أن تتفق أيضاً في الأسباب والنتائج) [١].

---

(١) فلسفتنا، ص ٣٥٢.

(٢) فلسفتنا ص ٣٠٥، وص ٣٥٢ ط ثالثة، دار التعارف، بيروت ١٤٣٠هـ

(٣) فلسفتنا ص ٣٠٥، وص ٣٥٢.

أ - الجانب التجريبي ومبدأ العلية:

أننا حينما ندقق في الجانب التجريبي نراه في كل تجاربه التي يتخذ منها نظرية عامة ينطلق منها بالحكم على كل أفراد الطبيعة التي أخضعها لتجربته واتخذ منها قانوناً عاماً بنى عليه نظريته،إنما ينطلق من مبدأ العلية - وقانون الحتمية - وقانون التناسب بين الأسباب والنتائج، فخذ مثلاً على صدق ما ندعيه من أنّ الجانب التجريبي هو في حاجة ماسة إلى القوانين الثلاثة أعلاه،أن العالم الطبيعي حينما يقوم بإخضاع (الذرة) في حقله التجريبي ويفهم جانباً من جوانبها المتعددة وليكن مثلاً أن (الذرة) تحتوي على موجب الذي يمثل (البروتون) والسالب الذي يمثل (الإلكترون) وهذان هما اللذان يحركان (الذرة) ويجعلانها في تحرك دائم،فإنه على القانون الأول يفهم العالم الطبيعي أن لهذا التحرك الدائم في (الذرة) سبب وهو وجود البروتون الموجب والإلكترون السالب، فهما السبب - وعلى القانون الثاني، نفهم مدى الارتباط بين الحركة والبروتون والإلكترون،

---

(١) فلسفتنا ص ٣٠٥، وص ٣٥٢.

ولا يمكن أن تنفصل الحركة وتستقل عنهما بحكم القانون الحتمي .

وعلى القانون الثالث يبني العالم الطبيعي نظريته العامة بعد إجراء تجربته على (ذرات) معدودة يراها متفقة في الأسباب والنتائج وبعد هذا يصدر حكمه على كل (ذرة) تجمع الخصائص والشروط اللازمة،فيقول كل(ذرة)هي متحركة.

وكذا إذا وضع قطعة من الحديد في النار وتمددت،فإنه يتخذ من هذا نظريته العامة على كل قطعة من الحديد ويقول إنها تتمدد بالنار، وما هذه النظرية إلا وليدة القوانين الثلاثة، فلولا أن النار علة للتمدد، وعدم انفصال المعلول عن العلة، وأن كل حديدة تتخذ شروطاً معينة لما أصدر نظريته، ولا انهارت جميع التجارب إلا في حدودها الضيقة.

ونخرج من هذا كله أن العلية قانون عام للكون وما فيه ولا يمكن الانفلات من هذا القانون، وحتى القانونين الأخيرين هما في الوقع نتيجة القول بالعلية، فإن قانون الحتمية، والتناسب، يتقومان بالعلية. وعلى أي حال فمبدأ

العلية ضروري للعالم الطبيعي الذي يشتغل في مصنعه ولولاه لما أمكنه أن يتخذ من تجاربه المحدودة على أفراد الطبيعة قانوناً عاماً على كل أفراده إذا كانت الصدفة هي التي تعمل عملها في هذه القطعة من الحديد تمددها،وهذه (الذرة) فتحركها، ولا يمكن أن تجرى هذه الصدفة في كل قطعة من الحديد فتمددها، وفي كل (ذرة) فتحركها فكيف يتاح له أن يتخذ من تأثير الصدفة قانوناً عاماً ونظرية يطبقها في كل مجالات تجربته،فإن شيئاً من هذا لا يمكن أن نفسره بشيء من الصدفة،وإنما هي العلية أولاً وبالذات وقانوني الحتمية والتناسب ثانياً،هي التي أوجدت له منبع نظريته العامة.

ب – الجانب العلمي النظري ومبدأ العلية:

بعد أن انتهينا من قيمة مبدأ العلية والعلوم التجريبية،بقي علينا أن ندرس قيمة مبدأ العلية على صعيد العلوم النظرية،وعدم استغنائها عن المواد الأساسية والركيزة الأولى لمبدأ العلية من القوانين الثلاثة المتقدمة – العلية – الحتمية – التناسبية فهي أي العلوم

النظرية في تصحيح استدلالاتها إنما تكون قيمتها بمبدأ العلية،فلولا إيمان هذا المستدل وعلمه بصحة ما يستدل به لما آمن وعلم بصحة دعواه وبرهانه،إذاً استدلاله كان علةً لعلمه بصحة دليله واستدلاله أصبح علة لعلمه،وأنه من المحتَّم أن تثمر هذه العلة صحة استدلاله حيث أن المعلول لا ينفصل عن علته،وأن أي استدلال إذا توفرت له الشروط اللازمة من صحته وترتيب أجزائه لا بد وأن ينتج ويثمر ليس في استدلال معين أو زمان معين وهذا يعني قانون التناسب الثالث من قوانين (مبدأ العلية). وعلى هذا نعرف أن قيمة العلية والإيمان بالعلة لا يظهر أثرها في العلوم التجريبية فقط وإنما العلية،هي الركيزة الأولى لجميع العلوم بما فيها التجريبية والطبيعية المادية وما وراءها،وهي بعبارة جامعة هي أي(العلية)أصيلة في (الوجود) ولا تختص بلون من ألوان الوجود.

أن رؤية دخان يعلو طبقات الجو يدل على وجود علة له وهي النار، وأن العلة تأتي حتىّ في العلوم الرياضية أيضاً التي لا ربط لها بالتجربة، فإن العلم بأن الأربعة هي نصف الثمانية كان معلولاً ومسبباً عن استدلاله على

ذلك بأن ضم أربعةً إلى أربعة فساوت ثمانية وأن الثمانية تنقسم إلى نصفين أربعة وأربعة،لما علم بعد ذلك بأن الأربعة نصف الثمانية.

وبدراستنا لقيمة مبدأ العلية على الصعيدين التجريبي والنظري العلمي، نخرج بالنتيجة التالية :

١- أن القانونين الحتمية التناسبية ضروريان لكل العلوم.

٢- أن العليةــ ضرورية لكل العلوم بل لكل ألوان الوجود.

٣- بطلان المزاعم الموجهة ضد قانون العلية سواء منها القائل بعدم ضرورتها أو الذي يضعها في نطاق التجربة .

ونحن سندرس كلاً من الدعويين ونبين جفاف ما يدعونه بما طرحه الفيلسوف الكبير الأستاذ الشهيد الصدر ﵀.

الميكانيكية والعلية :

أ – كانت الفلسفة (الميكانيكية) لا تؤمن بالعلية إلا في حدود التجربة، فالعلية في رأي الميكانيكية لا تعبر إلا

عن الرابطة المادية فهي حدود مادية وتخضع للكشف التجريبي.

والفيلسوف الكبير الشهيد الصدر قال: (إن مبدأ العلية ليس نظرية علمية، وإنما هو قانون فلسفي عقلي فوق التجربة،لأن جميع النظريات العلمية تتوقف عليه ويبدو هذا واضحاً كل الوضوح، بعد أن عرفنا أن كل استنتاج علمي قائم على التجربة يواجه مشكلة العموم والشمول ، وهي أن التجربة التي يرتكز عليها الاستنتاج محدودة، فكيف تكون بمجردها دليلا على نظرية عامة ؟ وعرفنا أيضاً أن الحل الوحيد لهذه المشكلة إنما هو مبدأ العلية باعتباره دليلاً على تعميم الاستنتاج وشموله، فلو افترضنا أن مبدأ العلية نفسه مرتكز على التجربة فمن الضروري أن نواجه مشكلة العموم والشمول مرة أخرى نظراً إلى أن التجربة ليست مستوعبة للكون ، فكيف تعتبر دليلاً على نظرية عامة؟ وقد كنا نحل هذه المشكلة حين نواجهها في مختلف النظريات العلمية بالاستناد إلى مبدأ العلية بصفته الدليل الكافي على عموم النتيجة وشمولها....)[1].

---

(١) فلسفتنا ص ٣١٠ و ٢٦٧ للشهيد الصدر ﷺ.

الميكرو فيزياء ومبدأ العلية:

ب - والميكرو فيزياء لا تؤمن بقانون الحتمية من قوانين مبدأ العلية حيث أنها قالت في معرض استدلالها على بطلان قانون الحتمية (... فقد يكون من الصحيح أن الأسباب ذاتها تولد النتائج نفسها في مستوى الفيزياء المدرسية أو فيزياء العين المجردة....)[١] وهذه حينما تحاول إبطال الحتمية فإنها في نفس الوقت توجه طعنها في مبدأ العلية .

ولكن الفيلسوف الكبير الشهيد الصدر ﷺ ردّ هذه الدعوى بقوله : (...إن مبدأ العلية لو كان مبدأً علمياً قائماً على أساس التجارب والمشاهدات في حقل الفيزياء الاعتيادية لكان رهن التجربة في ثبوته وعمومه،فإذا لم نظفر له بتطبيقات واضحة في ميادين الفيزياء الذرية ولم نستطع أن نستكشف لها نظاماً حتمياً قائماً على مبدأ العلية وقوانينها كان من حقنا أن نشك في قيمة المبدأ بالذات ومدى صحته أو عمومه، غير أنا وضعنا فيما سبق، أن تطبيق مبدأ العلية على المجالات الاعتيادية

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٨.

للفيزياء والاعتقاد بالعلية كنظام عام للكون فيها لم يكن بدليل تجريبي بحت، وأن مبدأ العلية مبدأ ضروري فوق التجربة، وإلا لم يستقم علم طبيعي على الإطلاق) [١].

والذي نقتبسه من كلام هذا الفيلسوف الكبير أن مبدأ العلية لا يمكن إنكاره سواء كان بإنكار قانون الحتمية الذي هو لا يتخلف عن كل قانون من قوانين العلم في الحقلين التجريبي والنظري، فإنا لو فهمنا في الحقل التجريبي بالنظر البدوي انفصال النتيجة عن السبب، فإن هذا لا يعني واقعية الانفصال ، بل يكون سبب تخيلنا هذا ينشأ من أمرين كما ذكر ذلك الفيلسوف الكبير ﵀:الأول : (نقصان الوسائل العلمية وعدم توفر الأدوات التجريبية التي تتيح للعالم الإطلاع على جميع الشروط والظروف المادية ....) [٢].

الثاني: (تأثر الموضوع نظرًا إلى دقته وضآلته بالمقاييس والأدوات العلمية تأثراً دقيقاً لا يقبل القياس والدرس العلمي...) [٣].

---

(١) فلسفتنا، ص ٣١٤ و ٢٧٠، للشهيد الصدر ﵀.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٧١.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٧١.

أو كان الإنكار ضد مبدأ العلية بالذات، هو لا يقوم على قيمة علمية وعقلية،فإن قانون الحتمية والعلية يقرهما المنطق والعلم الذي رأى بإنكاره لمبدأ العلية إنكارٍ لذاته، فإن علمهم بعدم العلمية جاء وليد استدلالهم على عدم العلية وهذا بعينه ما نعنيه من مبدأ العلية .

وهناك كثير من الماديين الذين يقولون بأزلية المادة وأنها وجدت بلا موجد فقد قال عدة من فلاسفة السوفييت: (... أن العالم الذي يحيط بِنا لم يخلقه أحد وأن الطبيعة موجودة أزلياً) [١].

ويقولون في مقام آخر: (وكل تطور علم الطبيعة يبرهن على أن الطبيعة ليست مخلوقة ويدل على أزلية المادة)[٢].

ويقولون: (تثبت الخبرة البشرية على مر العصور عدم إمكان نشؤ أهداف مادية من لاشيء وهذا يعني أن المادة وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد)[٣].

---

(١) المادية بين الأزليةِ والحدوث، للشيخ محمد حسن آل ياسين ص٤٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢.

ويقول الكاتب المادي: (لماذا لا نفترض أن المادة الأولى غير معلولة الوجود وبذلك يحسم النقاش دون اللجوء إلى عالم الغيبيات) [١].

وعلى ضوء هذه المقالات المتناقضة لا أراني بحاجة ماسة إلى التعليق عليها وتقديم البراهين العلمية على فسادها، فقد كفتنا المؤنة لما تنطوي عليه من المغالطة والتناقض الدالين على عدم صحتها،فمرةً تدعي أن العالم وجد أزلياً ولم يخلقه أحد، بدون أن يقدم ابسط دليل على ما يدعيه وكأنه غض النظر عن قانون - الحرارة الديناميكية - الذي أثبت بشكلٍ واضح بطلان هذا القول وأن العالم ليس أزلياً - وسنتكلم عن هذا بإسهاب إن شاء الله .

ومرةً أخرى تثبت شيئاً في رأس حديثها وتنفيه في ذيله وهذا شكلٌ من التناقض فتقول:أن الخبرة البشرية تثبت عدم نشؤ أهداف مادية من لا شيء، وتنقض هذا بقولها: وهذا يعني أن المادة وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد.

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٣.

وهذا الذيل بما ينطوي عليه نقضٌ لما أثبتوه في صدر الكلام واستنتاج خاطئ.

ومرة أخرى حينما يعجزوا عن إثبات ما يدعونه من قدم المادة وعدم خالق لها وأنها نشأة بلا سبب،يقدمون لطلاب الحقيقة فروضا من أجل أن يفروا من ميدان الاستدلال العلمي إلى ميدان الفرضيات الذي لا يتطلب جهداً!

وهذه الفرضيات لن تخدمهم بأكثر مما تخدم من يدعي عدم أزلية العالم وأنه نشأ من سبب وعلة لم يسبقها العدم وهي في أرقى سمات الكمال وعدم الاحتياج إلى الغير وإلا لكان في ذلك التسلسل الذي مقطوع ببطلانه وعدم نتيجته الإيجابية .

هذا كل الكلام حول المسألة الأولى من مبدأ العلية في القسم الأول من الفلسفة الميتافيزيقية الذي أثبتنا فيه بما لا يدع للشك جانباً في ضرورة التسليم بمبدأ العلية من الجانب العقلي والفطري القائل:(أن لكل شيء سبباً).

والآن وبعد هذا فلنُوَلي وجهتنا سواء المسألة الثانية: وهي ارتباط المعلول بعلته علنا نجد ضالتنا فيها بعد التوكل على الله سبحانه.

المسألة الثانية

التعاصر بين العلة والمعلول

هذا البحث إنما يطرح على من يؤمن بضرورة (مبدأ العلية).

وإلا من لا يؤمن به فلا يمكن أن يطرح عليه هذا البحث الذي يعنون بسؤال:لماذا تحتاج الأشياء إلى علة ؟

هذا السؤال يحاول أن ينظر عن جوهر العلاقة بين السبب والمسبب، العلة والمعلول، فما هو السر في خضوع المسببات لأسبابها،ومن أجل الإجابة على هذا اللغز ذكر الفيلسوف الكبير الأستاذ الشهيد الصدر ﷳ أربع نظريات لتوضيح العلاقة العضوية بين العلة والمعلول وتعاصر المعلول بعلته ونشير إليها بإيجاز :

الأولى نظرية الوجود

الثانية نظرية الحدوث

الثالثة نظرية الإمكان الذاتي

الرابعة نظرية الإمكان الوجودي لصدر الدين الشيرازي ﷳ .

١- نظرية الوجود:

(وهي النظرية القائلة: إن الموجود يحتاج إلى علة لأجل وجوده وهذه الحاجة ذاتية للوجود فلا يمكن أن نتصور وجوداً متحرراً من هذه الحاجة لأن سبب الافتقار إلى العلة سر كامن في صميمه ويترتب على ذلك أن كل وجود معلول)[١].

وهذه النظرية قد أخذ بها فلاسفة ماركسيون، وكانت تقوم على أساس أن الوجود يحتاج إلى علة وهذه الحاجة ليست نابعة من أمور خارجة عن ذات الوجود بل الحاجة قائمة في ذاته، والتجارب العلمية دلت على ذلك حيث تثبت أن كل موجود بشكلٍ عام لا ينفصل عن علته وسببه،فالعلية ناموس لكل الوجود ومن اعتقد بأن الوجود لا يحتاج إلى علة فقد أخذ بقانون الصدفة الذي لا ينسجم مع الوجود[٢].

وقبل الرد على هذه النظرية يجب أن نقارن بينها وبين الفلسفة الميكانيكية المادية القائلة بأزلية الكون -

---

(١) فلسفتنا، ص ٣٦٣.

(٢) فلسفتنا، ص ٣١٦ و ٢٧٢ الطبعة الأولى.

وأنه موجود منذ الأزل بلا سبب وأن الروابط فيه ليست قائمة على أساس الرابطة العلمية بل الرابطة المادية لا غير.

ونحن حينما نريد أن نجعل معادلة بينهما لا نرى فرقاً بين النظرية الحدوثية والفلسفة الميكانيكية من حيث المؤدى والنتيجة، فإن كلاً منهما تُناقِضان الفلسفة الميتافيزيقية الإلهية القائلة بوجود سبب أعلى تنتهي إليه كل المسببات بأسبابها.

إننا لا ننكر الفرق بين النظريتين - نظرية الوجود والميكانيكية - من حيث المحتوى والقيمة العلمية فإن الفلسفة - الميكانيكية - لا يمكن أن يساعد على صحتها الدليل والبرهان العلمي والفطرة،فإن الحرارة الديناميكية والفلسفة - الميتافيزيقية - والعقل كلها تقول بحدوث الكون، فهيَ لا تساعد على صحة ما تدعيه الميكانيكية جملةً وتفصيلاً .

بينما - نظرية الوجود - لا تساعد عليها البراهين المذكورة جملةً لا تفصيلاً، والسر في ذلك يعود إلى أن هذه النظرية تؤمن بمبدأ العلية وهذا ما لا يمكن أن تنكره

الأدلة العلمية والفطرة، ولا كن إيمانها بمبدأ العلية بشكلٍ مطلق في الوجود، وهذا لم توافق عليه الفلسفة – الميتافيزيقية – والدليل العقلي والفطرة – ونقطة الاختلاف والافتراق بين نظرية – الوجود– والميتافيزيقية – يعود إلى خطأ فهم فلسفة الوجود،فإن نظرية – الوجود – أساءت فهم حقيقته وبهذا اتهمت الفلسفة – الميتافيزيقية – بالأخذ بقانون الصدفة – لأنها تقول بغنى المبدأ الأول عن مبدأ العلية – والصدفة،لم تصمد أمام العلم القائل أن لا صدفه في الوجود، فلا وجود للمبدأ الإلهي.

ونحن هنا في هذا الصراع القائم بين – نظرية الوجود والفلسفة الميتافيزيقية نذكر ما قاله أستاذنا الفيلسوف الكبير الشهيد الصدر ﷲ بهذا ونجعل كلامه الفيصل في المقام : (ويجب أن نشير إلى أن اتهام فكرة المبدأ الأول، بأنها لون من الإيمان بالصدفة، ينطوي على سوء فهم لهذه الفكرة وما ترتكز عليه من مفاهيم، ذلك أن الصدفة عبارة عن الوجود من دون سبب لشيء يستوي بالنسبة إليه الوجود والعدم، فكل شيء ينطوي على إمكان الوجود، وإمكان العدم بصورة متعادلة، ثم يوجد من دون

علة فهو الصدفة ، وفكرة المبدأ الأول تنطلق من القول بأن المبدأ الأول لا يتعادل فيه الوجود والعدم،فهو ليس ممكن الوجود والعدم معاً بل ضروري الوجود وممتنع العدم ومن البدهي أن الاعتقاد بموجب هذه صفته لا ينطوي على التصديق بالصدفة مطلقاً)(١).

البراهين العلمية لأي النظريتين ؟

ونحن إنما نعبر عن الفلسفة – الميتافيزيقية – بالنظرية لا لكونها نظرية في الحقيقة فإن النظرية تعني المفهوم التجريبي الذي قد يتغير محتواه ومصداقه يوماً ما، وأما الفلسفة لا تعني التجربة، فنحن نعبر عنها بالنظرية من باب المجاورة، والمجاراة لقرينتها.

وبما أن هذا البحث والصراع بين النظريتين يدخل في صميم بحثنا وهو محاولة طرح الأدلة العلمية التي لا يعتريها شك ووهم في إثبات الصانع الحكيم جلّ شأنه الذي لم يغب عن البصيرة لا البصر لحظة واحدة ،نحن نطرح كلاً من النظريتين:

---

(١) فلسفتنا، ص ٢٧٤ الطبعة الأولى، وص ٣٦٤ الطبعة الثالثة ١٤٣٠ هـ، بيروت.

أ – نظرية الحدوث المادية (النافية للصانع).

ب– الفلسفة الميتافيزيقية الإلهية (المثبتة للمبدأ الأول).

ونترك الحكم في هذه أو تلك لشأن الأدلة العلمية .

إن موضوع كل من النظرية الحدوثية والفلسفة الميتافيزيقية واحد ألا وهو (الوجود) فبالوجود تقوم نظرية الحدوث وبه أيضاً تقوم الفلسفة الميتافيزيقية ، ولكن الخلاف يكمن في فهم فلسفة الوجود.

إن من أوضح الواضحات أن الوجود أو بالأحرى ما ينطبق عليه مفهوم الوجود ينقسم إلى قسمين:

١– الوجود الممكن :

وهنا إنما يكون بالنسبة للشيء الذي يتعادل فيه العدم والوجود، بمعنى أنه ليس ضروري الطرفين ،فالغليان الذي نراه في الماء وجوده ثابت لا ينكر، ولكن ليس عدمه مستحيلاً، وزيد وغيره من أفراد الإنسان وجودهم محسوس، ولكن وجودهم وعدمهم على حد سواء.

٢- الوجود الضروري:

وهذا لا يكون كالأول، فإن الطرفين لا يتساويان فيه ، فطرف الوجود ضروري وواجب له، وطرف العدم طبعاً يكون مستحيلاً وإلا لما كان وجوده واجباً، فإن الضرورة تعني استحالة وقوع اللا ضروري حيث أن الوجود والعدم يصطلح عليهما بالمتناقضين الذي يستحيل ارتفاعهما واجتماعهما ، وهذا إنما يكون للوجود الأعلى الذي تنتهي إليه كل الوجودات والأسباب والمسببات، ومفيض عليها كل ما تحتاج من كمال في ذاتها ، وهذا هو الله الخالق المصور، الذي لا يحتاج وجوده إلى العلية ، بل وجوده هو الذي غرس في الأشياء والماديات عللها وربطها بمسبباتها !.

أ - أما الوجود بالمعنى الأول - الذي يتساوى له الوجود والعدم - فهو الذي تبتني عليه النظرية - الوجودية - لا غير حيث أن الوجود بالمعنى الثاني - الوجود الذي لا يتساوى فيه العدم والوجود - لا يمكن أن يكون مشمولاً لنظرية - الوجود - والسر في ذلك

واضح لأن النظرية - الحدوثية - تنطلق من الحقل التجريبي الذي يعني - المادة - حيث تخضع للتجربة، والتي ينطلقوا من تجربتهم على حقيقة من حقائق - الطبيعة إلى أفرادها التي تشترك في حقيقتها، وتكون نظرية عامة بعد هذه التجربة، فعندما يأخذوا مثلاً قطعة من الحديد ويخضعوها في حقلهم التجريبي ويجروا عليها تجربتهم فيروها تتمدد بالنار، ويأخذوا قطعة أخرى مماثلة لها ويلمسوا نفس النتيجة، فينطلقوا من مبدأ العلية وقوانينه من العلية الحتمية التناسبية فيفهموا من هذا أن التمدد معلول للنار، ومن المحتم أن النار دائماً توجد التمدد ولا ينفصل عنها، وأن كل حديدة لها نفس الخواص التي في تلك الحديدة المجراة عليها التجربة لا بد وأن تتناسب معها في النتيجة وهي - التمدد - كما تناسبت معها في خواصها.

إذ هذه النتائج الثلاث - العلية، الحتمية، التناسبية - إنما خرجوا بها نتيجة التجربة، فعرفوا أن وجود التمدد متوقف على علته وهي - النار-.

وهذه الفكرة التي خرجوا بها إنما تكون في المادة الممكنة الوجود والعدم وهو - الوجود - بالمعنى الأول، فإن التمدد في الحديدة ليس ضرورياً وجوده قبل حصول علته وهي النار بشرطيها عدم المانع والقرب، فإن وضع العالم التجريبي قطعة الحديد على النار مع رفع الموانع تمددت وإن لم توضع لم يحصل، وهذا يعني أن التمدد في وجوده ليس ضرورياً.

وفي هذا المجال كل من النظريتين صادقتين، فنظرية الوجود - صادقة في هذا حيث وجود التمدد مفتقر إلى العلية، وكذا الفلسفة الميتافيزيقية.

ب - وأما الوجود بالمعنى الثاني - الضروري - فهو لا يمكن أن يكون منطلقاً لنظرية - الوجود - لأمرين:

الأول: أن هذا الوجود في حقيقته وماهيته لا يخضع لما قامت عليه نظرية الوجود لأنها تنطلق من مبدأ التجربة، وهذا الوجود الذي تستثنيه الفلسفة الميتافيزيقية من قولها بضرورة قيام مبدأ العلية في كل ألوان الوجود هذا لا يخضع للتجربة من قريب أو بعيد، لأنها لا تكون إلا في مقام الحس.

الثاني: أن الوجود الضروري، لا يخضع في جوهره لمبدأ العلية القائل أن لكل شيء سبباً والذي لا يكون إلا في ما هو محتاج إلى الكمال بعد النقصان، فالتمدد للحديدة قبل وجود النار معدوم، والعدم شيء مفتقر إلى الوجود ويطرأ عليه الوجود فهذا ناقص قبل هذا، وأما من كان وجوده ضروريا منذ الأزل فهو كامل لا يطرأ عليه نقص، فإن كان يحتاج إلى العلة من أجل وجوده فهو تحصيل حاصل، وإن كان من أجل استمراره في الوجود فهو غني عن هذا وهو خلف القول بأن ضروري الوجود بأنه في كل آن وجوده ضروري لا يطرأ عليه العدم بل مستحيل العدم، فلا يحتاج في وجوده إلى علة.

وهذا ما أخطأت فيه نظرية الوجود – القائلة بأن الوجود – محتاج إلى العلة وعلى إثر تعميمها خدشت في قول الفلسفة الميتافيزيقية – بأن الوجود يحتاج إلى العلة ما سوى – المبدأ الأول – فاتهمت في قولها بأنها أخذت بالصدفة – التي لا يساعد عليها العلم، لأنها لم تأخذ بمبدأ العلية بشكل مطلق في كل ألوان الوجود – فإن نظريتها لا يمكن أن تكون شاملة إلا ما كان خاضعاً للتجربة فقط

دون سواه، وما استثنته الفلسفة الميتافيزيقية من مبدأ العلية لا يخضع للتجربة، فلا أخذ بالصدفة كما تدعيه نظرية (الوجود) وبهذا انتصرت الفلسفة - الميتافيزيقية - في مباراتها العلمية على النظرية (الوجودية) وخرجت من الميدان غير محرزة للانتصار، وفشلت في تعميم نظريتها لمبدأ العلية على كل ألوان الوجود بخروج - الوجود الضروري من هذا - وفي اتهامها للفلسفة الميتافيزيقية - بأخذها بالصدفة - لعدم تعميمها لمبدأ العلية، حيث تبين أن لا جريان ولاحظ للصدفة فيما استثنته، بل تختص في الوجود الممكن إن قلنا بأن هناك صدفة[١].

وأنا سوف أعين قسماً ثانياً أخصه بدراسة نظرية (الوجود) بشكل معمق وواسع إن شاء الله تعالى.

٢- نظرية الحدوث :

وهذه النظرية تقول بأن حاجة الأشياء إلى أسبابها راجع إلى حدوثها، فعلى هذا كل شيء يتصف بالحدوث

---

(١) لدعوى بعض الفلاسفة من أن لا وجود للصدفة البتة.

يحتاج إلى علة من أجل حدوثه، فالإنسان حادث والكواكب حادثة والانفجار حادث والحرارة حادثة، والحركة حادثة وكل ما في الكون حادث، وهذه كلها تحتاج في حدوثها إلى أسباب (فالحدوث هو الذي يفتقر إلى علة وهو الباعث الرئيسي الذي يثير فينا سؤال لماذا وجد ؟ أمام كل حقيقة من الحقائق التي نعاصرها في هذا الكون وعلى ضوء هذه النظرية يصبح مبدأ العلية مقتصراً على الحوادث خاصة. فإذا كان الشيء موجوداً بصورة مستمرة ودائمة ولم يكن حادثاً بعد العدم، فلا توجد فيه حاجة إلى السبب، ولا يدخل في النطاق الخاص لمبدأ العلية) [١].

ما هي قيمة النظرية من الفلسفة ؟

إلا أن هذه النظرية لم يواكبها الحظ من الناحية الفلسفية فهي مردودة فلسفياً، فقد ردها الفيلسوف الكبير الشهيد الصدر (قدس) بقوله: (وهذه النظرية أسرفت في تحديد العلية، كما أسرفت النظرية السابقة في تعميمها،

---

(١) فلسفتنا، ص ٣١٨، وص ٢٧٤ الطبعة الأولى إيران.

وليس لها ما يبررها من ناحية فلسفية، فمرد الحدوث في الحقيقة إلى وجود الشيء بعد العدم كوجود السخونة في ماء لم يكن ساخناً، ولا يفترق لدى العقل، أن توجد هذه السخونة بعد العدم، وأن تكون موجودة بصورة دائمة فإنه يتطلب على كل حال سبباً خاصاً لها فالصعود بعمر الشيء وتاريخه أبعد الآماد لا يبرر وجوده ، ولا يجعله مستغنيا عن العلة)[١].

وعلى ضوء ما طرحه هذا الفيلسوف الكبير (قدس) من رد واضح لا يشوبه ريب نذكر أمرين:

الأول: في فلسفة الحدوث.

الثاني: في فشل تطبيق هذه النظرية في ما ترمي إليه.

أ – للفلاسفة في حقيقة الحركة بالنسبة للأشياء كلامان:

الكلام الأول: وهو الذي يذهب إلى أن الحركة استمرار بعد حدوث، فحينما تحدث حركة السيارة، أو الإنسان – أو الذرّة – وهذا ما أثبته العلم أن المادة في حركة دائمة – فحركة هذه الأشياء لا يتجدد وكأنه قطعة

---

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٨، وص ٣٦٥ الطبعة الثالثة ١٤٣٠ هـ.

واحدة، فليس هناك في أثناء الحركة ما يدعو إلى تجدد الحركة وحدوث بعد حدوث.

الكلام الثاني: القائل بأن الحركة متجددة ويتخللها حدوثات متعددة لأن الحركة عبارة عن التغير والتبدل، فهي على العكس في المذهب الأول.

ونظرية الحدوث سواء كانت من القائلين بالمذهب الأول استمرار الحركة، أو المذهب الثاني تجدد الحركة فهي في حاجة ماسة في الأخذ بمبدأ العلية، فإنا لو سلمنا بأن الحركة مستمرة غير متجددة لا نسلم أنها في غنى عن العلية، فإنها في أول انطلاقتها تلبست بمبدأ العلية ولا يمكنها أن تفلت من سلطانه القاهر، فلو جاء إنسان بعد آلاف السنين من مبدأ انطلاق صوت ما، يسأل ويقول ما هو مصدر هذا الصوت، وكذا الكواكب فإنها حدثت بعد أن لم تكن وهي منذ مليارات السنين، والطفل يسأل من الذي أوجدها، وحرارة الماء المستمرة لا يعني استغنائها عن العلة، وهي النار.

ب - لو سلمنا صحة هذه النظرية من تحديدها وقصرها مبدأ العلية على الحدوث في أول أزمنته فقط،

فلا يعني هذا صمودها ووقوفها ضد الفلسفة الميتافيزيقية وانتصار الاستدلال المنطقي والبرهان العقلي لها على الفلسفة الميتافيزيقية بل على العكس من ذلك تماماً، فإن الفلسفة الميتافيزيقية يسندها الاستدلال المنطقي، ويعضدها البرهان العقلي بل الفطرة، لأن هذه النظرية (الحدوثية) كأنها تريد أن تدعي أن ليس لهذا الكون علة وذلك لأنه غير حادث وأزلي، فإذا لم يكن حادثاً فلا يكون مشمولاً لمبدأ العلية، وهذا الادعاء لا يدعمه الدليل المنطقي، والعقلي، فها هي الحرارة - الديناميكية - تبرهن على حدوث الكون وعدم أزليته، والفطرة تتساءل عن علة الكون ومنشأه، وعلى هذا لا يمكن الأخذ بنظرية الحدوث فيما ترمي إليه في حدود الكون بأي لون من الألوان.

٣-٤- نظرية الإمكان الذاتي - والإمكان الوجودي:

وهاتان النظريتان تلتقيان في جواب واحد حول سؤال ما هو السر في حاجة الأشياء إلى أسبابها ؟ فتجيبان هاتان النظريتان بجواب أن الداعي لحاجة الأشياء إلى أسبابها هو الإمكان، ولكن النظريتين اختلفتا في فلسفة الإمكان الراجع إلى اختلافهما في حقيقة الماهية، والوجود.

ونحن تباعاً لما ذكره الفيلسوف الكبير ﷺ لا نذكر إلا نظرية الإمكان الوجودي للفيلسوف الشهير (صدر الدين الشيرازي ﷺ) ونحن هنا نطرح نصها تيمناً: (لا شك في أن العلية علاقة قائمة بين وجودين: العلة - والمعلول، فهي لون من ألوان الارتباط بين شيئين. وللارتباط ألوان وضروب شتى، فالرسام مرتبط باللوحة التي يرسم عليها، والكاتب مرتبط بالقلم الذي يكتب له، والمطالع مرتبط بالكتاب الذي يقرأ فيه، والأسد مرتبط بسلسلة الحديد التي تطوق عنقه، وهكذا سائر العلاقات والارتباطات بين الأشياء، ولكن شيئاً واضحاً يبدو بجلاء، في كل ما قدمناه من الأمثلة للارتباط، وهو أن لكل من الشيئين المرتبطين وجوداً خاصاً، سابقاً على

ارتباطه بالآخر. فاللوحة والرسام كلاهما موجودان، قبل أن توجد عملية الرسم، والكاتب والقلم موجودان، قبل أن يرتبط أحدهما بالآخر، والمطالع والكتاب كذلك وجد بصورة مستقلة، ثم عرض لهما الارتباط. فالارتباط في جميع هذه الأمثلة علاقة تعرض للشيئين بصورة متأخرة عن وجودهما، ولذلك فهو شيء ووجودهما شيء آخر، فليست اللوحة في حقيقتها ارتباط بالرسام، ولا الرسام في حقيقته ارتباط باللوحة، بل الارتباط صفة توجد لهما بعد وجود كل منهما بصورة مستقلة) [١].

والذي نستفيده ونخرج به على ضوء نظرية الإمكان الوجودي لملا صدر الدين الشيرازي ﵀ - أن الوجود الرابط - على نوعين:

الأول: الوجود المستقل، والرابط غير الذاتي.

الثاني: الوجود غير المستقل: والرابط الجوهري.

أما **الأول** - فيشمل كل وجودين مستقلين، ولا يرتبط أحدهما برباط العلية، وإنما يربطهما بعد وجودهما، لا

---

(١) فلسفتنا، ص ٢٧٥ الطبعة الأولى إيران طهران.

وجودهما في ذاته، فها أنت تلاحظ أن الرابط بين الكتاب والمطالع، والقلم والكاتب، ليس إلا بعد وجود الكتاب والمطالع، وكذا بين القلم والكاتب، ولا يتوقف وجود أحدهما على الآخر، فإن الكاتب لا يتوقف وجود ماهيته على وجود القلم.

إذاً نفهم من كل هذا أن الوجود مستقل في كيانه ولا يحتاج في وجوده إلى رابط يربطه بغيره.

وأما **الثاني** - فعلى العكس من الأول تماماً، فالوجودان في هذا غير مستقلين بل أحدهما متقومة ماهيته وكيانه بالثاني وبعد وجود الرابط الذي يربط بينه وبين الآخر، فلولا وجود الرابط الذاتي والوجود الثاني لما كان له وجود أصلاً، فالرابط هو المقوم لكيانه بل هو عين كيانه وماهيته، وليس له حقيقة بدون هذا الارتباط وإلا لما كان معلولاً وكان وجوده مستقلاً كالقلم، فإنه له وجود قبل وجود الرابط بينه وبين الكاتب، وأما هنا فلا وجود ولا حقيقة ولا ماهية إلا بنفس الارتباط، فحقيقة وماهية وجوهر تمدد الحديدة قائم بارتباط هذا التمدد بالنار أو الحرارة، ولا وجود ولا حقيقة لهذا التمدد قبل

ارتباطه بالنار وإلا لما كان متولداً من النار لأنه لا يملك له وجوداً وحقيقة قبل ارتباطه بالنار، ونقول هذا بعينه في الرموز الهندسية، فالقول بأن – ب – مرتبط بـــ – أ – ارتباط العلة بالمعلول، فهذا يعني أن ماهية – ب – لا يملك وجوداً مستقلاً بدون – أ – ثم بعد ذلك يطرأ الارتباط بين – ب – المعلول و – أ – العلة، فهذا يعني أن – ب – ليس معلولاً لـــ – أ – وإلا لما كانت – ب – موجودة قبل ارتباطها بـــ – أ – لأن العلية تعني أن لا حقيقة للمعلول إلا وراء ارتباطه بعلته.

تنبيه: قد يجول في خاطر القارئ النبيه بعد المقارنة التي يقوم بإجرائها بين هذه النظرية (الإمكان الوجودي)، ونظرية (الوجود) المتقدمة التي يأخذ بها بعض الماركسيين، أن لا فرق بينهما في المبنى، فتلك تقول أن الأشياء تخضع في وجودها لمبدأ العلية وكل وجود يحتاج في ذاته لقانون مبدأ العلية، وهذه النظرية الأخيرة تأخذ بنفس القول، إذن هي تشاركها في النتيجة والقيمة والنقد، وليست تلك بأولى من هذه في النقد، والاتهام (أي أنها في مقابل الفلسفة الميتافيزيقية).

الجواب:

والجواب: هو أن أوجه التشابه والتقارب بينة وواضحة، ولكن شيئاً واحداً الذي يعطي كلاً من النظريتين قيمة خاصة تتميز عن الأخرى دقيقاً وغير واضح، وعلى أساسه تستحق تلك النظرية النقد العلمي دون هذه.

إن المايز بين هذه النظرية وتلك والذي يوجد في هذه هو أن تلك النظرية عممت – مبدأ العلمية – لمفهوم الوجود – بشكل مطلق، ولم تأخذ بنظر الاعتبار ما يحتاج إلى – هذا المبدأ – وما لا يحتاج، بينما هذه النظرية لم تعمم الحكم لكل ما يتسع له مفهوم الوجود، بل قسمت ما ينطبق عليه مفهوم – الوجود – إلى قسمين:

أولاً : وجودات مستقلة طرأت الروابط عليها بعد ذلك، فهذه في حدود الوجودات المستقلة غير مشمولة – لمبدأ العلية – في وجوده.

وثانياً : وجودات غير مستقلة في وجودها، بل وجودها عين الرابط الذي يربطها بعللها، فهذه محكومة

لمبدأ العلية، فالكون حقيقته وماهيته هي عين ارتباطه بعلته العليا التي لا علة بعدها وهو الخالق سبحانه ولا وجود له وراء هذه العلة وإلا لما أصبح هذا الكون معلولاً لعلته العليا !

وبهذا يتضح أن هذه النظرية (الإمكان الوجودي) (١) لا تشارك تلك في النقد العلمي الموجه لتلك النظرية الوجودية الماركسية.

وبهذا نختم دراستنا التحليلية في القسم الأول حول مبدأ العلية الذي ثبت تحت قبة وخيمة جميع البراهين العقلية والعلمية الحديثة ، بأن الكون والعالم حادث وأنه مرتبط بعلته العليا التي تقف عندها جميع العلل ،والحمد لله كلما حمد الله شيء وسبحه بكرة وأصيلاً.

تاريخ مسودة البحث السبت ٩ ربيع الثاني ١٤٠١هـ
الموافق ١٩٨٠م قم المقدسة
وتاريخ التعديل والإضافات السبت ٧ جمادى الثانية
١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠ م الإحساء.
المشتاق إلى رحمة الله تعالى وعفوه
ابو آدم
حس الراضي

---

(١) الملا صدر الدين الشيرازي ﵀ صاحب كتاب الأسفار الأربعة.

القسم الثاني

(نظريـة الوجود)

تمهيد

إن الحديث عن (الوجود) وحقيقته لم يكن وليد زمن معين وفترة محددة، ولم تدرسه عقول الفلاسفة فحسب،بل كان هدفاً حتى للأديان، فكانت تنطلق من الحديث عنه وتعريف موضوعيته لتعين قواعد وأسس دينها، وإبراز معتقداتها في حلة قشيبة،استعادتها من (الوجود) الذي هو الركيزة الأولى والمنطلق الأول لمذهبها،فهذه الأديان القديمة من (البراهميين)، و(الايليين) وغيرهما قد حددت موقفها من أديانها على ضوء وسناء (الوجود).

هذا ولم يكن الحديث عن (الوجود) وفلسفته،وقفاً على الأديان بل كان للفلسفة القديمة والحديثة الحظ الأكبر، وشاركهم علماء الكلام في هذا.

وعلى ضوء دراستنا (للوجود) من جانبه الفلسفي نكون قد فهمنا فلسفة المفاهيم الثلاثة ،المفهوم المثالي ،

المفهوم المادي ، المفهوم الإلهي لفلسفة العالم ، والتي كانت قائمة على أساس فلسفة الكون والعالم،لأنها وكما درسها بعض الفلاسفة من زاوية (نظرية المعرفة والمفهوم الفلسفي للعالم)[١]، كذالك يمكننا درس هذه المفاهيم وأسس مبانيها من زاوية فلسفة (الوجود) لما له من تأثير كبير في بنائها وتشييد صرحها.

ونحن بعون الله سندرس (الوجود) من ناحيته الفلسفية والدينية الميتافيزيقية الإسلامية،واللا إسلامية،ليتسنى لنا الدخول في المفاهيم الثلاثة عن العالم وحقيقته (المفهوم المثالي، والمفهوم المادي، والمفهوم الإلهي عن العالم).

وهذه الدراسة سأذكرها في مسألتين:

المسألة الأولى: (الوجــود) في فلسفته الميتافيزيقية (القديمة)[٢].

المسألة الثانية: (الوجــود) في فلسفته الميتافيزيقية (الإسلامية).

---

(١) فلسفتنا، ص ١٨٠، الطبعة الأولى.

(٢) قبل الإسلام.

المسألة الأولى

(الوجـود)
في
الفلسفة القديمة



تعدد الوجود:

إن اختلاف نظر الفلاسفة والأديان في تحديد مفهوم (الوجود) كان له اكبر الأثر على تعدد وتنوع المذاهب الفلسفية بل والمذاهب الدينية،حيث أن كل مذهب صاغ له فكرة مذهبية أقام دعائمها على ما كان ينحوه ويستسيغه من فلسفته الخاصة لمفهوم (الوجود).

وفي الحقيقة إن اختلاف الفلاسفة إنما كان بعد اتحادهم في تقسيم (الوجود) إلى نوعين :

الأول: أن الوجود له نوع رفيع يتصف بالكمال والخير ويستحيل عليه التغير والتبدل،وأنه أزلي قديم لا يتصور العقل له بدايةً ونهاية[١].

الثاني: أن (للوجود) نوعاً يختلف عن الأول وفي مقابله تماماً.

---

(١) الجانب الإلهي، ص ٤٤٩، ذ ٦ ق.

وذاك أصل لهذا وهذا أصل لذاك[١].

واختلاف الفلاسفة إنما يرجع إلى النوع الثاني في تقييمه وإعطائه مميزات ربما تتفق مع النوع الأول عند بعض الفلاسفة، وآخرون يسلبون عنه كل مميزات الأول، فيصفونه بأنه شر وعدم وأنه ناقص،وانه مقيد غير مطلق إلى غيرها،مما سيمر عليك في استعراضنا لبعض المذاهب.

١- أفلاطون[٢]وفلسفته (للوجود):

(أفلاطون) هو أحد فلاسفة الإغريق القدامى، بل هو كما صرح أحد مؤرخ الفلسفة،أنه على رأسهم وسيدهم، وقال في حقه الدكتور أحمد فؤاد لاهوائي: (وأفلاطون هو أنبغ نوابغ الفكر،وأول الفلاسفة وأشهر الحكماء،وهو أول من أنشأ المدارس الفلسفية العظيمة فكانت الأكاديمية

---

(١) المصدر السابق نفسه،

(٢) ولد أفلاطون في شهر مايو سنة ٣٧٤- ٤٢٩، قبل الميلاد، وأبوه (أرستون) من نسل (فدروس) آخر ملوك أثينا القدماء. المصدر تهافت الفلاسفة، الهامش ص ٩٥.

إحدى مدارس أربعة أثرت أعظم الأثر في الحضارة القديمة، وهذه المدارس الأربعة هي: الأكاديمية – والمشائية – والرواقية – والأبيقورية).

إن فلسفة (أفلاطون، للوجود) كانت قائمة على تقسيمه إلى قسمين:

الأول: الوجود (المطلق).

الثاني: الوجود (المقيد).

و(أفلاطون) هو أحد الفلاسفة الذين يرون بأن النوع الثاني من (الوجود) لا يتحلى ولا يمتاز بمواصفات النوع (المطلق).

وفلسفة (أفلاطون) (للوجود) تتجلى معالمها بوضوح، وتبرز لنا بأظهر معانيها، ذلك حينما نربطها بمثله،ففي مثله الأفلاطونية يرى بأنه يوجد عالمان،عالم (المُثُل) وهو عالم غير مرئي يتصف بالأزلية والكمال، والبقاء، وعالم محسوس يكون صورة لذاك العالم، وهو بهذا يقصر (الوجود) الذاتي بالنوع الأول دون الثاني،الذي يعتبره ظلاله، فلا وجود ذاتي له، وكان بهذا يعتبره

شبيهاً بالعدم، فيكون على هذا يرى ما تراه المدرسة الإيلية، من نعتها النوع الثاني من الوجود بالعدم وأن الذي يستحق وصف الوجود إنما هو النوع الأول من (الوجود).

٢- أفلوطين[1] وفلسفته (للوجود):

أفلوطين هو ممن يؤمن بوحدة (الوجود) ويأخذ بنظرية الفيض وأنه يبدأ من المبدأ الأول وهو الله سبحانه فكان يقول:

الله! هو واحد مطلق بسيط غير مركب،غير متحرك وغير ساكن ليس في زمان ولا مكان لا يعتريه نقص،وليس عقلاً ولا نفساً وليس مادة. ولا يدركه الوصف وهو مبدأ الوجود جميعاً.

الفيض: يتأمل الله ذاته فيعقلها فيفيض عند كائن أول هو العقل وليس العقل الله نفسه لأن الله علته، فالعقل معلول والله ليس معلولاً، والعقل يعقل نفسه ويعقل الله

---

(١) راجع دراسات في الفلسفة اليونانية والعربية لأنعام الجندي، ص٩٩.

فهو إذن عاقل ومعقول إذن هو متعدد والله واحد ولا يعقل إلا ذاته.

ويتأمل العقل الله ويتأمل ذاته فتفيض عند النفس الكلية التي تملأ العالم تتأمل النفس العقل فتفيض عنها نفوس الكواكب ونفوس البشر والآجام وهذه النفس تنظم العالم وتحييه وبدونها لا نظام ولا حياة والمادة أدنى مراتب الوجود فإذا حلت النفس في الجسد أصابتها الشرور من علائق المادة .

٣- أرسطو[١] وفلسفته (للوجود):

أرسطو من فلاسفة اليونان القدامى،وكان من أكبر تلامذة (أفلاطون) والذي كان يسميه أستاذه (عقل المدرسة) وبعض الفلاسفة كان يلقبه (بالمعلم الأول).

---

(١) ولد أرسطو في استاخيرا من بلاد مقدونيا على خليج ستى عيون بالقرب من جبل آتوس، وكان أبوه (نقوماخس) طبيباً لامنيطس ملك مقدونيا،وكانت ولادة أرسطو سنة ٣٢٢ قبل الميلاد ووفاته سنة ٣٨٤ ، راجع تهافت الفلاسفة ص ١٠٣. ولي ملاحظة في تاريخ ولادته هذه مع ولادة أستاذه أفلاطون سنة ٣٧٤ فعمره عشر سنوات حين وفاة أستاذه !!

وجاءت فلسفة (أرسطو) مناقضة لفلسفة أستاذه (أفلاطون) في بعض اتجاهاتها، وقد ذكر بعض مؤرخي الفلسفة بعض الفوارق بين فلسفته وفلسفت أستاذه:

أ- إن فلسفة (أرسطو ما كانت تؤمن بالمُثُل الأفلاطونية، التي كان يعتبرها أصل الوجود،وما المادة المحسوسة إلا ظل للمثل، ولكن أرسطو فلسفي المادة حيث أنه أعتبرها هي الأصل والصورة هي بمثابة ظلال لها،وأن واقع الكائن المكون، إنما هو من (الهيولة والصورة) [١].

ب - وأما بالنسبة لمبدأ (الوجود) ففلسفته تتخذ طابعاً معاكساً لفلسفة أستاذه (أفلاطون) إذ أن هذا في فلسفته لمبدأ (الوجود) ينطلق من نظريته الخاصة عن الكون والعالم وهي نظرية (المثل)فالنوع الأول من (الوجود) كان يطلق عليه عالم المثل، الذي هو عالم الإله والخير وهو ذاتي (الوجود)، والثاني ظل لذاك العالم وصورة له،وهذا لا يكون (الوجود) ذاتيًا له، وهذه الفلسفة لمبدأ (الوجود) لا تلتقي مع فلسفة تلميذه (أرسطو) لمبدأ

---

(١) راجع نفس المصدر ص٩٨، والمنهاج الجديد في الفلسفة العربية.

(الوجود) إذ أن هذا في ميتافيزيقيته قسم (الوجود) إلى نوعين وفرق بينهما:

الأول : واجب الوجود.

الثاني : ممكن الوجود .

وقد استدل على الأول بالثاني،لا لكونه انتقالاً من المعلول إلى العلة أي ليس استدلالاً (آنياً) كما يعبر عنه الفلاسفة، إذ أن ممكن الوجود عنده مساوق لواجب الوجود في الزمان ذهنا،فليس احدهما متقدماً على الآخر، وأحدهما ناشئاً من الثاني، وستتم دراستنا لفلسفة أرسطو لمبدأ الوجود في أربعة جوانب:

الجانب الأول: أنه منح كلا من النوعين (واجب الوجود، وممكن الوجود) سمات خاصة ليس بينهما التقاء،ونحن نذكر صفات كل من النوعين. وسأذكر بعد الجانب الأول وملحقاته، الجوانب الثلاثة وهي: ثانياً نستعرض كيفية استدلال (أرسطو) على النوع الأول بالثاني. ثالثاً كيفية الربط بينهما. رابعاً ما يرد عليه.

النوع الأول: (واجب الوجود) وامتيازاته الخاصة:

أ – أن واجب الوجود، واقع بالفعل.

ب – أن واجب الوجود غير متحرك لأن التحرك هو الانتقال من حال القابلية إلى الوقوع، والواجب واقع بالفعل.

جـ – أنه غير محتاج إلى الغير، لأنه غير متحرك، والاحتياج من أجل الحركة وهي منفية عن واجب الوجود، لأنه قائم بنفسه.

د – أنه مستقر وثابت على حال واحدة،لأن عدم الاستقرار إنما يعني قفزات الممكن من حال إلى حال من أجل أن يكتمل في صورته وهيئته ولكن (واجب الوجود) ليس محتاجاً إلى كل هذا إذ هو تام، فالإستقرار على حال واحدة صفة ثابتة وذاتية له .

هـ – أن (واجب الوجود) واحد،لا يوصف بالإثنينية والتعدد لأن هذا يولد التغاير والتباين بعدد أفراده،والتغير والمغايرة لا تكون إلا من صفات ممكن (الوجود) وإلا يكون واجب (الوجود) يحمل صفات متناقضة، فيكون الوجود ممكناً وواجباً،وهذا مستحيل لأنه يعني التناقض .

و- لا بد وأن يكون بسيطاً غير مركب،فلا يكون من جزأين، لأنه يؤدي إلى التغير والتبدل،وهذا تناقض كما تقدم.

ز - غير مسبوق بــمادة لأنه يعني أنه غير تام ومحتاج غيره، ولكان متحركاً، والحركة من شأن المادة، وبهذا يطلق أرسطو على (واجب الوجود) أنه صورة محضة.

حـــ - محرك لغيره لأنه معشوق لممكن (الوجود) نحو تمامه بالرغم من أنه غير متحرك، ولهذا يصفه بقوله: «المحرك الذي لا يتحرك»[١].

النوع الثاني وما يمتاز به :

ذكر أرسطو (لممكن الوجود) صفات معينه تستفاد من فلسفته (لمبدأ الوجود) ونحن نذكرها كما يلي:

أ - ممكن الوجود،له قابلية الاستعداد لأن يقع .

ب- يتحول من حال إلى حال .

---

(١) راجع للاستفادة الجانب الإلهي، ص ٢٥٩-٢٦١، وتهافت الفلاسفة ص ٩٦ .

ج - يتحرك لأن الانتقال حركة .

د- حركة ممكن الوجود إنما هي من غيره لا من ذاته وإلا لكان غنياً فلا يكون ممكناً.

هـ - لا يكون تاماً لأنه ليس واقعاً بالفعل بل قابل لذلك وهذا لا يؤدي إلى تمامه،وإنما هو يسعى إلى ذلك .

و- عبر (أرسطو) عن ممكن الوجود بـ(مادة أوهيولى) وهذه هي قابلة للتصور والتشخص، فبدايته مادة وآخره شكل أو صورة.

ز- أنه اعتبر (ممكن الوجود) أصل العالم لأن بدايته مادة وهيولى، وهو ليس منبثقاً من واجب الوجود،بل اعتبره قسيماً (لواجب الوجود)(١).

الجانب الثاني فلسفة أرسطو لإثبات النوع الأول من الثاني:

بعد أن كانت فلسفة (أرسطو) تقوم على تقسيم الوجود إلى نوعين ومنح كلاً من النوعين مميزات خاصة،دلل في فلسفته هذه على إثبات واجب الوجود من ممكن

---

(١) الجانب الإلهي، ص ٢٥٧ و ٢٦١.

الوجود نفسه ولم يكن هذا على أن الثاني معلولاً للأول فيكون انتقالاً من المعلول إلى علته،وإنما كان هذا منطلقاً من فلسفة (أرسطو) للنوع الثاني وما أضفى عليه من مميزات كانت من ذاتية (ممكن الوجود).

فأرسطو في فلسفته هذه كان يقول، بأن انتقال (ممكن الوجود) من حال القابلية والاستعداد إلى حال الوقوع يستدعي حركة، والحركة كما كان يدعي أنها ليست ذاتية له،فلا بد أن يكون قد اكتسبها من أمر خارج عنه،فإذا فرض أن هذا الأمر الخارج عنه من نوعه ومن سنخه بمعنى أنه من ممكن الوجود،لزم فيه ما لزم في الممكن الأول، ولا أولوية له على ذاك.

وهكذا يأتي هذا الكلام في كل ممكن إن فرض أنه هو الذي منح الممكن الأول الحركة والتي ساعدته على الانتقال من حال الاستعداد للوقوع إلى الوقوع فعلاً،وهذا ما يؤدي إما إلى التسلسل الذي لا نهاية له أو إلى الدور،المعلوم بطلانهما، ولا يعني هذا إلا الحكم على أن ممكن الوجود تلقى الحركة من أمر خارج عنه ليس من نوعه، وليس هو إلا واجب الوجود، إذ لا يتعقل أن يكون

مصدر الحركة هو العدم الذي هو في مقابل الوجود، والعدم لا يمكن أن يمنح الحركة لعدم وجود تسانخ بينهما وإذا كان ممكن الوجود لا يمكن أن يكون مصدر الحركة، فبالأولى أن لا يكون العدم مصدرها . وعلى هذا فالعقل يتصور واجب الوجود حينما يتصور ممكن الوجود لافتقار هذا إلى ذاك.

الجانب الثالث فلسفة (أرسطو) والربط بين نوعي الوجود:

فلسفة (أرسطو) تقوم في الربط بين (واجب الوجود، وممكن الوجود)، أو الإله وأصل العالم، على الربط الذهني، فالذهن هو الذي يقوم بالربط بينهما وذلك أنه حينما يتصور ممكن الوجود ينتقل ذهنه بسرعة فائقة لتصور واجب الوجود، وبهذا يصبحان متلازمين في التصور الذهني، ولا تقدم لأحدهما على الآخر، وهما قديمان.

وقد انطلق (أرسطو) في فلسفته هذه على الربط الذهني من واقعية (الوجود) وذلك لأن فلسفته (للوجود) المقسمي الذي عنه نقسم (الوجود) إلى نوعين،هذا لا

يمكن أن يكون إلا ذهنياً لا وقوع له في الخارج، إذ لو كان وقوعه كذلك لكان (ممكن الوجود) الذي هو أحد قسميه واقعاً في الخارج، وهذا خلاف ما أثبته من أنه له قابلية الوقوع لا الوقوع الفعلي، فيتعذر أيضاً أن يقع المقسم فعلاً، وأحد قسميه غير قادر على الوقوع فعلاً وغير واجب،فهو بهذا لا يكون إلا وجوداً ذهنياً لا خارجياً[١].

و(أرسطو) بفلسفته هذه لم تكن نظرته للإله والعالم،أو واجب الوجود وممكن الوجود،من أصحاب الحلول، والاتحاد، كما عليه (البراهميين)[٢] القائلون بحلول الوجود (الإله براهما) في هذا العالم لأنهم لا يؤمنون بأثنينية الوجود، بل الوجود الثاني شر وعدم،ولم يأخذ بما قال به (الإيليون)[٣] من أن الإله واحد، وهو متحد مع

---

(١) راجع في هذا الواجب الإلهي، ص ٢٦١.

(٢) البراهمية، هو دين من الأديان القديمة، والذي ظهر في الهند. راجع الجانب الإلهي ص ٢٥١ .

(٣) الإيلية مدرسة من مدارس الإغريق اليونانية ترجع إلى ٥٤٠ سنة قبل الميلاد نفس المصدر.

هذا العالم ومدبر له ،ولم يكن يأخذ بما قال به (أفلاطون) من المثل وفلسفته للوجود؛ وتنويعه له إلى مطلق، ومقيد، بل كان عنده (أي الوجود) منه ما هو تام،ومنه ما هو قابل لذلك[١] .

الجانب الرابع :

أما ما يخص مناقشة أرسطو في فلسفته لمبدأ الوجود والاعتبار المذكور منه، من – أن ممكن الوجود،هو أصل العالم وأنه غير منبثق من واجب الوجود – يتناقض مع ما أقره سابقاً في مميزات وصفات النوع الأول – واجب الوجود–، بل وما أثبته لهذا النوع من صفات، فأقول وبالله المستعان يرد عليه ما يلي:

أولاً: ذكرت في الصفة الثالثة من صفات النوع الأول تحت:

جـ– أنه غير محتاج إلى الغير لأنه غير متحرك) فأنت أخذت في فلسفة الاحتياج إلى الغير هو عروض

(١) راجع كلاً من الجانب الإلهي ص٢٦٢ ، وتهافت الفلاسفة ص٩٦، والفلسفة عند اليونان، ص ٢٨٥ .

الحركة للشيء واحتياجه إليها ،وقد أثبت في صفات ممكن الوجود الواقعة تحت

- أ، ب، ج، أنه ناقص ومحتاج إلى الغير وأنه متحرك،كما وذكرت في الصفة الرابعة الواقعة تحت - د - أن حركة ممكن الوجود من غيره لا من ذاته ...).

وثانياً : إذا كان (الوجود) عندك إنما يعني فقط نوعين لا ثالث لهما وهما - واجب الوجوب، وممكن الوجود، - وكان هذا عندك محتاج إلى غيره لأنه متحرك فإلى من هو محتاج ؟؟

إن أجبت وقلت أنه محتاج إلى واجب الوجود فهذا يناقض ما قلته في آخر حديثك عن مميزات ممكن الوجود الواقع تحت - و- بقولك :(... وهو - ممكن الوجود - ليس منبثقاً من واجب الوجود ...).

وإن قلت إنه محتاج في تحريكه ودفعه من القوة إلى درجة الفعلية في هذا كله إلى ثالث مجهول،فالجواب أنه هل في احتياجه المذكور إلى شيء موجود أو معدوم؟ فإن كان إلى موجود وهو الذي يشمله مفهوم (الوجود)

فهو لا يعدو أحد أمرين: إما (واجب الوجود) وهذا ما نفيته بالنص الصريح المذكور آنفاً. وإما (ممكن الوجود) وهذا لا يتعقل لما يخفى من أنه عين الدور الذي يعني توقف الشيء على نفسه، أو التسلسل الذي لا نهاية له، وبطلانهما لا يخفى.

وثالثاً: إن كان احتياجه – ممكن الوجود – إلى شيء معدوم ، فهذا بطلانه أوضح من سابقه المتقدم، إذ أن المعدوم لا يتمتع بمواصفات ممكن الوجود – حيث أنه يتصف بصفة الوجود وذاك يتصف بصفة العدم – وهذا أقل قيمة فكيف يعطي ممكن الوجود صفة الوجود ويدفعه من القوة إلى الفعل ، ويمنحه صفة أعلى منه لم يحرزه له،وفاقد الشيء لا يعطيه فظهر أنه لا يمكن للوجود الممكن أن يتكئ في وجوده على نفسه لما فيه محذور الدور،والذي يأباه كل ذي لب ، ولا على الطرف المفروض والمتصف بالعدم لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فلم يبق عندنا في المورد بحسب القسمة العقلية سوى –

واجب الوجود الذي لا غنى بحال من الأحوال - لممكن الوجود - أن ينفك عنه ويستغني عنه في وجوده،وهذا ما نص عليه نفسه في حديثه عن مميزات - واجب الوجود - تحت عنوان - ط - بقوله : (محرك لغيره لأنه معشوق لممكن الوجود نحو تمامه...) ولكنه سرعان ما نقضه حينما تحدث عن مواصفات - ممكن الوجود - وكأنه غفل عما ذكره سابقاً !

وبعد هذا العرض المطول الذي تشعشعت فيه أنوار الحقيقة بين أهداب عينيك اتضح لك كيف أن هذه الفلسفة المادية لا تقوم على برهان عقلي ودليل منطقي،وأنها متناقضة الأطراف ؟

فأسفر لك الصبح عن جماله، وأزاح الستر عن زيف ما كان يدعيه أرسطو وغيره من فلاسفة الإغريق،من أن ممكن الوجود لا يحتاج في وجوده الى واجب الوجود ومن أن ممكن الوجود أصل العالم، بل هو مستحيل ودونه خرط القتاد!

٤- فلسفة الوجود عند الرواقيين[١]:

للرواقيين رأي في (الوجود) يختلف عن بقية الفلاسفة وبالأخص منهم (زينون وخريسيب) فإنهما أخذا بفلسفة متميزة في تفسير (الوجود)حيث أنهما قسما (الموجود) إلى قسمين:

أ - مادي وجسمي.

ب - غير مادي وجسمي.

وعلى أثر هذا التقسيم الثنائي قال (الرواقيون):أن الوجود فيه ما هو حقيقي وفيه ما ليس كذلك.

---

(١) الرواقيون - نسبة إلى الرواق المزخرف الذي نشأ فيه (زينون القبرصي) وكان هذا الرجل من أعلام الرواقية وله آراء في جوانب كثيرة من الفلسفة، وقد ولد في مدينة - سيتبوم - وهي من قبرص وذلك سنة ٣٤٢ قبل الميلاد وكان في أدوار حياته الأولى يمارس التجارة ،وعلى أثر فقده للتجارة لسبب كارثي أتجه لدراسة الفلسفة على يد - لكراتس الكلبي - و- ستلبو الميغاري - وبوليسو الأكاديمي - ومات منتحراً سنة ٢٦٤ قبل الميلاد.
راجع كلاً من معالم الفلسفة ص١٧٦، وتهافت الفلاسفة ص١٢٠.

فالمادي والجسمي له وجود حقيقي، وما ليس كذالك فلا وجود له حقيقة ، حتى أنهم على أثر فلسفتهم (للوجود) بهذه الروح أخرجوا ما كانوا يؤمنون بأنه محيط للعالم من الزمن والمكان الخالي، لا وجود لها على سبيل الحقيقة لأنهما غير ماديين وجسميين(١).

وبعد أن قاموا بتقسيم (الوجود) إلى ما تقدم ذكره، قسموا المادي والجسمي إلى قسمين :

أ- منه ما هو فاعل مؤثر،وهذا هو الذي مادته رقيقة.

ب - وفيه ما هو منفعل متأثر، وهذا مادته غليظة.

ويرون أنهما متصلان وأن أحدهما يوجد في الآخر ويحل فيه.

وهم بهذه الفلسفة لقبوا بالماديين لأنهم يقصرون (الوجود)على ماهو مادي وجسمي،ويلقبون بالموحدين لتوحيدهم بين نوعي المادي رقيقه وغليظه، فاعله ومنفعله .

---

(٢) راجع الجانب الإلهي ، ص ٢٦٥.

وقد اعتبروا الإله هو العقل المؤثر والفاعل،ويسمونه جوهراً فيه الإله أو العقل، أما المنفعل فيسمونه جوهراً بلا كيف أو مادةٍ على الإطلاق[١].

تعليق:

إن هذه الفلسفة لا يمكن الأخذ بها للأسباب التالية:

١- أنها لم تعتمد فيما قدمته على أدلة قطعية أو براهين عقلية.

٢- أنها لم تخضع لقانون الديناميكا الحرارية الذي يقضي بأن المبدأ الأول أو العلة الأولى لا بد وأن تكون أزلية وأن المادة غير أزلية.

٣- أنها اعتبرت الإله والعالم ماديين،فيرد عليها كل ما يرد على الماديين.

٤- أنها قامت بالتوحيد بين العلة والمعلول القابل والمنفعل وجعلتهما من سنخ واحد،مع ضرورة التفريق بينهما .

---

(١) راجع الجانب الإلهي، ص ٢٦٥.

المسألة الثانية

(الوجود)

في

فلسفته الميتافيزيقية الإلهية

والكلام فيه في موردين:

المورد الأول: في تعريف الوجود.

المورد الثاني: آراء الفلاسفة فيه.

أ - أما المورد الأول: في تعريف الوجود:

فقد جاء في تعريفه في ألسنة علماء الكلام والفلاسفة،فقال المتكلمون: (الموجود هو الثابت العين، والمعدوم هو المنفي العين) [١].

وقال الحكماء: (الموجود هو الذي يمكن أن يخبر عنه، والمعدوم هو الذي لا يمكن أن يخبر عنه)[٢].

وإن كان هذا التعريف وسابقه لم يكونا موضع قبول عند خواجة نصير الدين الطوسي ﵀ لأنهما يؤديان إلى الدور الباطل، ووصفهما بأنهما تعريف لفظي (للوجود) لا حقيقي.

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص ١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢.

وكما حصل الاختلاف في تعريف (الوجود)كذلك في معنى (الوجود) وما هو معناه الحقيقي،فهل هو واجب فقط؟أو واجب وممكن؟ قال صاحب الإسناد ﵀: (اختلفوا في الوجود هل هو كلي أو جزئي؟ وفي أنه واجب أو ممكن؟ وفي أنه عرض أو جوهر؟ أو ليس بعرض ولا جوهر بل اختلفوا في أن الوجود موجود أو معدوم؟ أو ليس بموجود ولا بمعدوم؟...)(١).

وقال مشايخ المعتزلة كأبي علي الجبائي المتوفى (٣٠٣هـ) وولده أبي هاشم والقاضي عبد الجبار المتوفى (٤١٥هـ).

وغيرهم، قالوا: (أن الثابت ينقسم إلى موجود ومعدوم وحال وبهذا أثبتوا الواسطة بين الوجود والعدم،والحال عندهم هو عبارة عن صفة الشيء ولكنها لا توصف بالوجود ولا بالعدم، ولا بالمعلومة، ولا بالمجهولة،ولا بشيء أبداً... (٢).

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص ١٢.
(٢) عن معالم الفلسفة، ص ٢٧.

هذا وقد اختلف علماء الكلام والحكماء فيما بينهم من أن الماهية المقومة للشيء هل هي زايدة على (الوجود) أم هي عين (الوجود) ولا زيادة ومغايرة بينهما؟ هذا بعد أن اتفقوا على أن ماهية واجب الوجوب عين وجوده وأنه لا ماهية له سوى الوجود المجرد عن كل شيء،وبعد أن اتفقوا على أن لا تغاير بين الماهية والوجود في الخارج.

قال الأشاعرة المعتزلة وعلى رأسيهما أبو الحسن الأشعري[١] ، وأبو الحسين البصري المعتزلي: (أن وجود الماهية هو عينها بالذات فوجود الإنسان هو نفس الحيوان الناطق دون زيادة في الخارج أو في الذهن)[٢].

وقال جماعة من المتكلمين والفلاسفة: (أن وجود الماهية زائد عليها ومغاير لها،واستدلوا بما يلي:

١- بأنه يصح أن تقول الماهية موجودة، وصحة حمل شيء على شيء دليل المغايرة إذ لو كان الوجود هو

---

(١) عن معالم الفلسفة، ص ٢٩.

(٢) نفس المصدر.

نفس الماهية لكان معنى الحمل الماهية والموجودة موجودة وليس كذلك[١].

٢- بأنه يصح سلب الوجود عن الماهية فتقول الفقهاء لا وجود لها ولو كان الوجود عين الماهية لَلَزم سلب الشيء عن نفسه[٢].

٣- بأنه يصح التفكيك بين تعقل الماهية وتعقل وجودها، لأنه من الممكن أن نتعقل الماهية ونشك في وجودها وأن نعقل وجــوداً مطلقاً، ونجهل خصوصيات الماهية[٣].

ومن مجموع هذه الأدلة خلصوا بحقيقة التغاير والتمايز بين وجود الشيء وماهيته وجوهره ، فيوجد مغايرة بين وجود الشمس وماهية الشمس مثلاً ، وبين وجود العنقاء وذاتها ، فإذا وجود الماهية زائد عل الماهية، وليس هو عين الماهية ، فافهم بارك الله فيك.

---

(١) هذا القول لأبي الحسن الأشعري، المتوفى (٣٣٦ هـ).
(٢) هذا القول لأبي الحسين البصري، المتوفى (٤٣٦ هـ).
(٣) راجع كلاً من معالم الفلسفة، ص ٣٠، وشرح التجريد، ص ١٥.

المورد الثاني: آراء الفلاسفة في (الوجود)

❖ فلاسفة المسلمين وحقيقة (الوجود) عندهم:

١- الكندي[١]:

في الحقيقة إن فلسفة (الوجود) عند (الكندي) غير واضحة المعالم لدى الباحثين ويكتنفها الغموض

---

(١) الكندي هو الملقب بالفيلسوف العربي والمشائي الأول في الإسلام ولم يكن في الإسلام من اشتهر عند الناس بمعاناة علوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفاً، وقد صنف في كثير من العلوم، فقد كتب في الفلسفة والمنطق، والفلك، والطب، والجدل، والنفس، والأخلاق وبلغت مؤلفاته مائتين وخمسة وستين رسالة .
اسمه: أبو يعقوب بن إسحاق الكندي،من قبيلة كندة المشهورة التي كان موطنها جنوب مدينة العرب،وقد ولد في آخر القرن الثاني للهجرة في مدينة الكوفة، وقد كان أبوه حاكماً عليها. راجع في هذا كتاب الجانب الإلهي، ص ٢٧٥.
وقال عبده الشمالي صاحب تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية أن الكندي قد ولد في الكوفة سنة (٨٠١) ومات سنة (٨٦٨) ولا نعلم سر الاختلاف الكبير في تاريخ ولادته ووفاته وكان أبوه أميراً على الكوفة في عهد المهدي والرشيد.

والإبهام،وهي عند بعض الكتاب[١]متأرجحة بين فلسفة (أفلاطون، وأرسطو،وأفلوطين) والذي عرفت كما تقدم فلسفتهم المتباينة في حقيقة الوجود، وما هذا الترديد كما يدعي البعض إلا لقلة المصادر التي تظهر فيها آراء الكندي الفلسفية لحقيقة (الوجود) والذي معلوم عن الكندي هو أنه يأخذ بما جاء في القرآن الكريم من تقسيم (الوجود) إلى نوعين وأنه يفرق بين هذين النوعين ، ولكن جوهر فلسفته لهذين النوعين من الوجود غير واضحة وبينه لما تقدم ذكره،فلا يدرى أنه (عبر عن النوع الممتاز منه بالوجود المطلق،وعن الآخر المقابل له بالوجود المقيد فيكون بذلك أفلاطونياً في التعبير؟)[٢].

(أم اختار عبارة - واجب الوجود - للأول،وممكن الوجود للثاني فيكون أرسطياً في الصياغة ؟؟)[٣].

---

(١) الدكتور محمد البهي في الجانب الإلهي، ص ٢٧٧.

(٢) الجانب الإلهي، ص ٢٧٧، محمد البهي.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٧.

ولكن وبعد هذا الترديد من هذا الكاتب رجح أن الكندي أرسطي في تعبيره وذلك لأنه لقب بالمشائي فعلى هذا يكون الوجوب عند الكندي هو الوجود على سبيل الحقيقة وهو وجود الله سبحانه والممكن ليس وجودا مساوقاً للأول وإنما هو طارئ، ويعني بذلك العالم فلا يكون الوجود له ذاتياً وإنما هو حادث و منحة من الله سبحانه.

٢- الفارابي[١] وفلسفته للوجود:

فلسفة (الفارابي) قائمة على القول بأثنينية (الوجود) وذلك إيماناً منه بما رسمه الدستور الإسلامي من إثنينية الوجود، وكأنه في إطار تقسيمه له يحدد معالم كلا نوعيه بتعبير دقيق يختلف به عمن سبقوه ويتحد معهم في جوهر التعبير من بعض مناحيه،فأحد النوعين عنده هو - الواجب بذاته .

---

(١) أبو نصر محمد بن محمد بن ظرخان بن أوزلغ الفارابي. ولد من أب فارسي ... الجانب الإلهي ص٢٩٩، ودراسات في الفلسفة اليونانية والعربية ص٧٦، لإنعام الجندي ط الشرق الأوسط.

والآخر - الممكن بذاته -، ونحن نورد نص تعبيره في هذا المجال.

قال: (أن الوجود على ضربين:أحدهما إذا اعتبر ذاته لم يجب وجوده ويسمى ممكن الوجود،إذا فرضناه غير موجود لم يلزم منه محال، فلا غنى لوجوده عن علة، وإذا وجب صار واجب الوجود بغيره، فيلزم من هذا أنه كان فيما لم يزل ممكن الوجود بذاته، واجب الوجود بغيره.وهذا الإمكان: إما أن يكون شيئاً فيما لم يزل،وإما أن يكون في وقت دون وقت ، والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلولاً، ولا يجوز كونها على سبيل الدور، بل لا بد من انتهائها إلى شيء واجب هو الموجود الأول)[1] .

---

(١) الجانب الإلهي ص٣٠٦، ودراسات في الفلسفة اليونانية والعربية ص ٧٨.

٣- ابن سينا[1] وفلسفته للوجود:

إن فلسفة أبن سينا تقترب من فلسفة الفارابي في تحديد ما يريد به من نوعين الوجود ــ فلقد نوعَ الوجود ــ إلى نوعين:

الأول: واجب الوجود، وعرفه (بأنه هو الموجود الذي إذا فرضناه غير موجود عرض منه محال).

الثاني: ممكن الوجود،وعرفه بأنه (إذا فرضناه غير موجود أو موجوداً لم يعرض منه محال).

---

(١) راجع دراسات في الفلسفة اليونانية والعربية ص١١٤.

وفي كتاب نظرية المعرفة للشيخ جعفر سبحاني حفظه الله ص١٧٦، قال عن ابن سينا (هو اسم لامع في تاريخ العلم والفكر والطب ، ومن أكبر الفلاسفة المسلمين) واشتهر بعدة كتب منها:

١- كتاب القانون موسوعة طبية خمس مجلدات ، وترجمه الغربيون .

٢- كتاب الشفاء ، فيه قسم الطبيعيات.

٣- كتاب الإشارات .

٤- كتاب النجاة.

ثم بعد ذلك صنف – الواجب الوجود – إلى صنفين:

أ – الواجب الوجود بذاته، وهو الموجود لذاته لا لأي شيء آخر .

ب – الواجب الوجود لا بذاته ولكن بغيره،ولكن يصبح واجب الوجود إذا نشأ عن شيء ليس فيه مثل الاحتراق فهو واجب الوجود لا بذاته ولكن عند ما يلتقي المحرق والمحترق...)[١].

وهذا نص بيانه الذي أورده في كتاب النجاة[٢] :

قال: (... ثم واجب الوجود قد يكون واجباً بذاته،وقد لا يكون بذاته.أما الذي هو واجب الوجود بذاته:فهو الذي لذاته لا لشيء آخر أي شيء كان يلزم محال من فرض عدمه.

وأما واجب الوجود لا بذاته:فهو الذي لو وضع شيء مما ليس هو صار واجب الوجود فمثلاً: أن الأربعة واجبة الوجود لا بذاتها ولكن عند فرض اثنين واثنين.

(١) دراسات في الفلسفة اليونانية والعربية، ص ١١٥.

(٢) كتاب النجاة لابن سينا، ص ٢٢.

والاحتراق واجب الوجود لا بذاته ولكن عند فرض التقاء القوة الفاعلة بالطبع والقوة المنفعلة بالطبع أعني المحرقة والمحترقة) [١] .

وفي مجال البحث والتحدث عن أصل (الوجود) قال: (تنبيه! كل موجود إذا ألتفت إليه من حيث ذاته من غير التفات إلى غيره فأما أن يكون بحيث يجب له الوجود في نفسه أو لا يكون: فإن وجب: فهو الحق بذاته الواجب وجوده من ذاته،وهو (القيوم). وإن لم يجب لم يجز أن يقال أنه ممتنع بذاته بعد ما فرض موجوداً،بل إن قرن باعتبار ذاته شرط مثل شرط عدم علته صار ممتنعاً،أو مثل شرط وجود علته صار واجباً. وإن لم يقرن بها شرط لا حصول علة ولا عدمها بقى له في ذاته الأمر الثالث وهو الإمكان، فيكون باعتبار ذاته الشيء الذي لا يجب، ولا يمتنع .

فكل موجود إما واجب الوجود بذاته أو ممكن الوجود بحسب ذاته) [٢].

---

(١) الجانب الإلهي، ص ٣٦٦.

(٢) الجانب الإلهي، ص ٣٦٧ محمد البهي.

إن (الوجود) عند ابن سينا كما يستفاد من نصوصه المطروحة قد دلل على ثنائيته وانقسامه إلى (الوجود الواجب، والوجود الممكن) بنفس ما يتصف به هذان القسمان من صفات ذاتية وخارجية، وكأنه بهذا أراد أن يستدل على ثنائية الوجود بأدلة قد استخلصها من نفس صفات الواجب والممكن، والصفات التي ذكرها ابن سينا يمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: الصفات الخارجية.

القسم الثاني: الصفات الذاتية.

القسم الأول: الصفات الخارجية:

وهي التي لا تكمن في ذات كل من الواجب والممكن مثل نسبة عدم الوجود إلى الوجود فإن هذه النسبة متى اقتربت من ساحة واجب الوجود أثمرت المحالية، وهذا ما عناه بقوله:(إن واجب الوجود:هو الموجود الذي متى فرض غير موجود عرض منه محال) وهذه الصفة

ليست ذاتية له،وإنما اتصف بها بعد أن فرض أنه غير موجود.

وكذا الكلام بالنسبة (لممكن الوجود) فإنه متى ما قيل فيه أنه غير موجود أو موجود فإنه لا يتصف بعدم استحالة الطرفين بل كل من الوجود وعدمه ممكن في ساحته،وهذا ما يعبر عنه بممكن (الوجود) فهو متصف بكلا الحالتين.

وابن سينا عن طريق هذه الصفة (المحالية وعدمها) أمكنه أنه يقسم (الوجود) إلى الواجب والممكن.

القسم الثاني: الصفات الذاتية

وهي التي بها أمكنه أن يقسم (الوجود) إلى قسمين ولكن في هذه المرة كان تقسيمه قائماً على أساس صفات (الوجود) الذاتية، فقسمه إلى واجب الوجود بحسب ذاته، وممكن الوجود بحسب ذاته، وهذا قسمه أيضاً إلى واجب الوجود عندما تكتمل شرائط وعلل وجوده،وإلى ممكن الوجود عندما لا تكون كذلك فهذا ثلاثة أقسام للوجود بحسب ذاته وإن كان الثالث لم يكن قسيماً للأول بل قسماً من الثاني:

أما الأول: واجب الوجود بحسب ذاته أي يجب له الوجود لذاته لا لتوسط أمور خارجة عن ذاته لا كالزوجية التي وجبت عند اقتران واحد بواحد أو الأربعة عند اقتران اثنين باثنين،بل وجب له الوجود بذاته من ذاته،وهذا ما عناه بقوله:

(.... فأما أن يكون بحيث يجب له الوجود في نفسه أو لا يكون: فإن وجب: فهو الحق بذاته الواجب وجوده من ذاته، وهو (القيوم) سبحانه.

وأما الثاني: ممكن الوجود بحسب ذاته، وهذا يتولد منه قسم ثالث أو فرع ثالث ، وذلك إن لم يقترن بذاته شرط وعلة صار ممتنعاً ، مثل عدم احتراق الثوب ،فإن هذا لعدم اقتران ذاته بالنار، وإن اقترنت ذاته بالشروط اللازمة صار واجباً وجوده لا بذاته ،مثل احتراق الثوب عند اقتران ذاته بالنار.

وإن لم تقترن ذاته بشيء لا بالعلة ولا عدمها صار ممكناً غير ممتنع ولا واجب، مثل وجود الإنسان وعدمه متساوي الطرفين وممكن فيهما معاً .

الثالث: واجب الوجود لا بذاته:وهو الذي متى ما اقترنت ذاته بشروط وعلل لازمة لوقوعه صار واجباً وجوده لا بذاته ولكن بسبب توفر الشروط اللازمة.

وقد ذكر هذا وما قبله بقوله: (وإن لم يجب - أي لم يجب له الوجود، ومن هنا بدأ في بيان القسم الثاني من قسمي الوجود لم يجز أن يقال أنه ممتنع بذاته بعد ما فرض موجوداً.بل إن قرن باعتبار ذاته شرط مثل شرط عدم علته صار ممتنعاً، أو مثل شرط وجود علته صار واجباً. وإن لم يقرن بها شرط، لا حصول علة ولا عدمها بقي له في ذاته الأمر الثالث وهو الإمكان....) .

تعليق: هذا التقسيم الذي أورده ابن سينا في بيان القسم الثاني من قسمي الوجود غير فني وليس مقبولاً، حيث أنه ذكر في هذا القسم ثلاثة جوانب للوجود ، والصحيح أن يذكر فيه جانبين ، وذلك لأنه في أول الأمر قسم (الوجود) إلى قسمين :

الأول : ما يجب له الوجود لذاته وهو المبدأ الأول سبحانه .

الثاني : ما لا يجب له الوجود لذاته .

وهذا الثاني يجب أن يقال فيه أنه إما أن يكون واجباً وجوده ولكن لا لذاته بل لاقترانها ببعض الشروط ، وإما أن يكون ممتنعاً وجوده، وذلك لعدم اقتران ذاته بالشروط اللازمة لوجوده ، وذلك لأن الوجود كما تقدم ليس واجباً لذاته كالاحتراق.

وأما ذكره للجانب الثالث فغير وارد لأنه ينطوي على التضاد الذي لا يمكن الأخذ به حيث قال: (وإن لم يقرن بها شرط، لا حصول علة ولا عدمها) فكيف الذات تخلو من كلا الأمرين من حصول العلة ومن عدم العلة ،فإن هذا هو عين القول بارتفاع الضدين ، بل العلة في كل شيء إما أن تكون موجودة أو معدومة، فإن كان الوجود لذلك الشيء واجباً لا لذاته، وإن لم تكن كان ذلك الشيء ممتنعاً وجوده،نعم هذان الجانبان في مقابل القسم الأول الذي وجب الوجود لذاته ،يعتبران داخلين تحت القسم الثاني الذي لم يجب الوجود لذاته ، وهو يعني الإمكان .

وفي نهاية المسألة الثانية حول رأي الفلسفة الميتافيزيقية الإسلامية لمبدأ (الوجود) الذي طالما كان معترك أفكار جهابذة الفلاسفة ، نختم حديثنا في القسم الثاني لنظرية (الوجود) عسانا أفدنا قرّاء طلاب الحقيقة وعشاقها ، والحمد لله كلما حمد الله شيء وسبحه ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد وآله المطهرين من الرجس وجميع الآثام عليهم جميعاً أفضل التحية والسلام.

تاريخ مسودة البحث السبت ٩ ربيع الثاني ١٤٠١هـ قم المقدسة

تاريخ الإضافات والتعديل السبت ٧ جمادى الثاني ١٤٣١هـ ٢٠١٠م

الأحساء / المنصورة

الراجي رحمة ربه وعفوه

أبو آدم

حسن الراضي العبد الله

القسم الثالث

العالم

بين الأزلية والحدوث

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[١].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

من المسائل التي تطرح على صعيد الفلسفة الإلهية، وبقية الفلسفات المادية هي مسألة أن العالم هل هو قديم وأزلي أم هو حادث ؟

وهذه المسألة بما أن لها مساس بموضوعنا الذي ندرسه حول (المبدأ الأول) لا بد من دراسة هذه المسألة من كل جوانبها وأبعادها ليتضح ويتبين الرشد من الغي، وليذعن كل من له أدنى بصيرة، ويقول أنه ابن الدليل

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.

والبرهان المنطقي، ويكون سعيه وراء الدليل العقلي السليم.

إن هذه المسألة كانت معترك آراء المفكرين والفلاسفة من القديم وإلى يومنا هذا، ونحن نطرح أولاً آراء الفلاسفة الماديين القائلين بقدم العالم والمادة وحجتهم، ثم نطرح رأي الفلسفة الإلهية وحجتها، وننظر أي الرأيين يقوم على أساس البرهان العقلي والدليل المنطقي، حتى نأخذ بمن حظي بذلك وفاز بقصب السبق، ونعرض عن غيره ثم نقول له سلاماً .

الفلسفة المادية :

١- قال بعض الماديين السوفييت : (تثبت الخبرة البشرية على مر العصور، عدم إمكان نشوء أهداف مادية من لا شيء. وهذا يعني أن المادة وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد)[١].

---

(١) المادة بين الأزلية والحدوث، ص ٤٢ للشيخ محمد حسن آل ياسين.

٢- ويقول م - ف. لومونوسوف: (في الطبيعة لا ينشأ شيء من لا شيء ولا يختفي أبداً بلا أثر، ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن المادة، الطبيعة وجدت دائماً. لأننا إذا سلمنا بأنه في وقت من الأوقات لم يكن هناك شيء في العالم أي لم تكن توجد مادة فمن أين لها أن تنشأ. ولكن ما إن توجد المادة، فهذا يعني أنها لم تنشأ في أي وقت من الأوقات، بل وجدت دائماً وستوجد دائماً) [١].

٣- وقال أحد الماديين: (لماذا لا نفترض أن المادة الأولى غير معلولة الوجود وبذلك يحسم النقاش دون اللجوء إلى عالم الغيبيات)[٢].

٤- وقال هيجل: (لا شيء أزلي سوى المادة)[٣].

وقبل الانتقال في التحدث عن الفلسفة الإلهية وموقف العلوم الطبيعية والتجريبية منها يحلو لي التحدث والتعليق على هذه النصوص المادية التي أراد أربابها

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٤١.

إثبات أزلية المادة والكلام حول هذه النصوص يكون بما يلي:

أ- أن هذه النصوص متناقضة فيما بينها وقاصرة عن إثبات ما ترمي إثباته، فصدر النص غير ذيله، وأحدهما يثبت والآخر ينفي، فخذ مثالاً على ذلك ما ورد في النص الأول من هذه النصوص، (تثبت الخبرة البشرية على مر العصور، عدم إمكان نشوء أهداف مادية من لا شيء، وهذا يعني إن المادة وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد). فبينما يثبت في صدر كلامه أنه لا يمكن أن يصدر وينشأ شيء من لا شيء، وإذا به يستنتج من هذا أن المادة أزلية ولم تنشأ من شيء، ولا ندري كيف يوفق بين القانون العام القائل بالعلية في كل شيء والذي استثناه من التجربة، وبين إخراجه المادة من هذا القانون العام، وإنها لا تحتاج له، وهذا يعني أزلية المادة، بينما صدر كلامه يثبت عكس ما أثبته في الذيل، .. إذ لا بد للمادة بحكم هذا القانون المذكور في صدر الكلام أن تكون معلولة وحادثة، وهذا يعني عدم الأزلية، لأن كل حادث ليس بأزلي.

ب- أن ما ورد في النص الثاني ليس انتصاراً للفلسفة المادية بحال من الأحوال، وإنما هو يناصر الفلسفة الميتافيزيقية، القائلة بحدوث العالم، وذا نحن نتدبر ما ذكره لنرى التناقض المفضوح، إذ ذكر في صدر حديثه، (في الطبيعة لا ينشأ شيء من لا شيء ولا يختفي أبداً بلا أثر...) وهذا الكلام فيه من الدلالة الواضحة على العلية العامة وثبوتها في كل شيء، ما لا يخفي على كل ذي بصيرة، فقد حكم حكماً قاطعاً أنه لا يصدر ولا يحدث شيء من الأشياء بلا سبب وعلة، ولكن هذا العالم تراجع عن قانونه العام الذي أصدره على كل شيء ومن ضمن الشيء - الطبيعة - (المادة) حسب ما عبر عنها فقال: (... لأننا إذا سلمنا بأنه في وقت من الأوقات لم يكن هناك شيء في العالم أي لم تكن توجد مادة فمن أين لها أن تنشأ...) وفي هذا الكلام من الخطأ ما لا يخفى على أحد، فإنه بكلامه هذا كأنه يريد أن يثبت أزلية المادة ويقول بقدمها، حتى تكون هي بنفسها سبباً لنشأتها ووجودها لنفسها بنفسها، وهذا يعني الدور الباطل، لأنه يجب أن تكون متوقفة على نفسها ولا بد أن توجد قبل أن

توجد وبعبارة أخرى لا بد وأن تكون أزلية قديمة وموجودة حتى توجد نفسها بعد ذلك، والفلاسفة قد أبطلوا الدور، بل التجربة والوجدان لا يقر ذلك، بل والمبدأ الذي أقره في صدر كلامه من أنه لا ينشأ شيء من لا شيء، ينطبق على المادة الأزلية كيف نشأت من لا شيء، ثم قال: (... ولكن ما إن توجد المادة، فهذا يعني أنها لم تنشأ في أي وقت من الأوقات، بل وجدت دائماً وستوجد دائماً).

ونحن نتساءل مع هذا القائل ونقول ماذا عنيت بقولك: ما إن توجد المادة، هل قصدت بهذا الكلام أنها ما كانت ثم وجدت ؟ كما هو ظاهر العبارة، ويسعه مفهوم كلمة (... توجد...) التي تدل على الحدث المناقض للأزل، فإن قصدت به هذا، فقد كان الكلام الذي بعده باطلاً، (... فهذا يعني أنها لم تنشأ في أي وقت من الأوقات...) فإن مدلول هذا الكلام إثبات الأزلية للمادة، وذاك الكلام يعني حدوث المادة، وهما شيئان متناقضان فكيف جمعت بينهما لتروم إثبات قدم وأزلية المادة؟.

وإن قصدت بقولك: (... ما إن توجد المادة...) أن المادة أزلية وقديمة فيرد عليك أمران:

الأول: أن العبارة لا تتحمل إعطاء معنى الأزلية للمادة، بل ولا تعطي أن المادة وجدت، بل مفهومها أن المادة في طريقها إلى الوجود، وأين هذا من وجود المادة وحصولها فضلاً عن أزليتها الذي يعني القدم في وجودها.

الثاني: لو سلمنا أن هذه العبارة تدل على أزلية المادة وتناهيها في القدم كما تقصد أنت، ولكن هذا يناقض ما طرحته وأثبته في صدر كلامك، (في الطبيعة لا ينشأ شيء من لا شيء...) والمادة هي شيء وتدخل في مفهوم (شيء) فكيف تكون المادة أزلية الذي يعني عدم نشوءها وصدورها من شيء!!.

هذا الكلام كله من حيث تناقضها (العبارة) في ذاتها وعدم اتزانها وإعطاء فكرة صحيحة عن قدم العالم والمادة، وأما درس هذه الفلسفة ككل، فهذا ما نطرحه بين يدي العلوم التجريبية والنظرية لتعطينا حكمها بالأدلة

والبراهين المنطقية والعقلية، فليؤجل بعد عرض الفلسفة الميتافيزيقية.

الفلسفة الميتافيزيقية (الإلهية):

وهذه الفلسفة تتصادم مع الفلسفة المادية التي تدعي أزلية المادة وقدمها، وأنها لا تستند في وجودها على مبدأ العلية القائل أن لكل شيء سبباً، ونحن الآن نطرح فكرة الفلسفة الإلهية.

إن ما تؤمن به هذه الفلسفة هو أن العالم حادث وليس بأزلي وأنه له نهاية، حيث أن كل ماله بداية له نهاية، وكل ما لم يكن كذلك لا يكون كذلك، وهذا شيء مسلم به عند الفلاسفة ولا جدال فيه، وقد صيغت فكرة حدوث العالم بعبارات فلسفية مختصرة ونحن لا يهمنا الآن الإسهاب في ذكر هذه الصيغ بأكثر مما يهمنا الاستدلال على صحتها،ولكن مع هذا نحن لا نحرم القارئ الحر من تعطير ذهنيته بهذه الصيغة التي ذكرها الفيلسوف الكبير صدر الدين الشيرازي في كتابه، وارتضاها لسلامة استدلالها على المطلوب، (إن العالم متناهي

القوة، وكل متناهي القوة متناهي البقاء فيستحيل أن يكون أزلياً) [١]، وتوجد بعض الصيغ الأخرى للاستدلال على عدم أزلية العالم، كأن يقال: (العالم متحرك وكل متحرك حادث، إذن العالم حادث).

والذي يهمنا في هذا البحث هو أن ما تدعيه الفلسفة المادية، والفلسفة الميتافيزيقية هل له قيمة في نظر الأدلة المنطقية والعلوم التجريبية أم لا ؟ إذن على هذا لا بد من أن نسلط ضوء العلوم التجريبية والنظرية على ما تدعيه الفلسفة الميتافيزيقية من حدوث العالم، ليكشف لنا ضوء العلوم زيف أو صحة ما تدعيه هذه الفلسفة، ولا أخالني بحاجة ماسة بعد الاستدلال على صحة أو زيف ما تدعيه الفلسفة الميتافيزيقية أن نستدل مرة أخرى على صحة أو زيف الفلسفة المادية، لأن النسبة بين كل من الدعويين هي نسبة التناقض الذي يستحيل فيهما الصدق، فإذا برهنا على صدق ما تدعيه الفلسفة الميتافيزيقية من حدوث العالم، فلا بد وأن تكذب الفلسفة المادية من قدم

---

(١) الأسفار الأربعة، ج٣، ص ١٦٤.

العالم وعدم حدوثه، إذ لا يمكن أن تصدقا معاً، حيث يعني ذلك قدم العالم، وحدوثه في نفس الوقت وهذا ما يأباه البرهان العقلي والدليل المنطقي، فعلى هذا لا بد من أن نجس حقيقة الفلسفة الميتافيزيقية، بدراسة العلوم الطبيعية والتجريبية، لتعطينا حكمها القاطع، وموقفها الثابت من هذه الفلسفة، لينعكس على أذهاننا ونطبقه على سلوكنا ليكون أنشودتنا في الحياة بعد أن نعرف من هو المحدث لهذا العالم وما هي القدرة الجبارة، واليد الحكيمة التي تمتد من وراء الطبيعة لتسيرها على أحسن وجه وأفضل نظام ؟

والسؤال: ما هو موقف العلوم النظرية والتجريبية من الفلسفة الميتافيزيقية ؟

إن دراسة قيمة الفلسفة الميتافيزيقية على صعيد العلوم مطلقاً يكون على طائفتين وبهما يتم الجواب :

١- **الطائفة الأولى** ، العلوم النظريـــة والفلسفة الميتافيزيقية:

أ - إن دراسة قيمة الفلسفة الميتافيزيقية على قانون (مبدأ العلية) يعطينا موقفه الإيجابي الصريح، حيث يقول

إن لكل شيء سبباً، والعالم بما فيه السماء والأرض وما يحويانه، شيء وهذا الشيء لا يمكن أن يكون بهذا النظام الكامل الرصين والإبداع المتقن بلا سبب وعلة، فإذاً ما تقوله الفلسفة الميتافيزيقية هو قائم على الدليل العقلي المستقل، (قانون مبدأ العلية) الذي تقدم الكلام عنه مفصلاً في القسم الأول فليراجع.

ب - النصوص القرآنية التي تتحدث عن خلق السموات والأرضين، وكل ما يحويانه، وهذه النصوص كثيرة نذكر بعضاً منها:

١- قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ...﴾ [النمل : ٦٠].

٢- وقال سبحانه: ﴿... وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل : ٦٣].

٣- وقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦].

٤- وقال تجلت قدرته: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ١٠١].

٥- وقال تباركت آياته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [فصلت : ٣٧].

٦- وقال جلت عظمته: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت : ٢٠].

٧- وقال من له الخلق: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان : ١١].

٨- وقال تعالت حكمته: ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك : ٣].

وهذه الآيات الكونية الزاخر بها القرآن الكريم تقدم الأدلة والبراهين العقلية ليحكم على ضوءها بحدوث

العالم وعدم أزليته لا كما تدعيه الفلسفة المادية، وأيضاً تثبت في نفس الوقت من هو الخالق لهذا العالم أهي المادة كما عليه الفلسفة المادية (الديالكتيكية) ؟ أم المبدأ الأعلى الذي يتمثل في الذات المقدسة الإلهية ؟، وهذا ما عليه الفلسفة (الميتافيزيقية)، فالآيات تدلل أن الخالق لهذا الكون الدقيق ليس إلا الذات المقدسة لا المادة، وسنتعرض لهذا الحديث بشكل موسع مدعوم بالبراهين العقلية والأدلة المنطقية إن شاء الله في القسم المختص به.

جـ- ذكر الفيلسوف محمد إقبال ثلاثة أدلة على وجود الله، والدليل الثاني موضع بحثنا، قال فيه: (الدليل الكوني وهو الذي ينظر فيه إلى الكون على اعتبار أنه معلول متناه، ثم ينتقل في سلسلة من أشياء يتعلق بعضها ببعض تعلق العلة بالمعلول، حتى يقف عند علة أولى لا علة لها، لأن العقل لا يقبل التسلسل إلى غير نهاية)[١].

د- ما قاله بعض النصارى: (إن العالم متناهي القوة، وكل متناهي القوة متناهي البقاء فيستحيل أن يكون أزلياً) [٢].

---

(١) الله ذاتاً وموضوعاً - عبد الكريم الخطيب ص٢٢ .
(٢) الأسفار الأربعة ج٣ ص١٦٤.

وهذه الأدلة الأربعة باستثناء الدليل القرآني الثاني[١] خير دافع على الإيمان بحدوث العالم والأخذ بالفلسفة الميتافيزيقية القائلة بما تقول به العلوم النظرية وليست هي الوحيدة في الميدان العالمي، لتنفرد بما تدعيه من حدوث المادة والعالم، بل دعواها مشفوعة بالنظريات العلمية.

وعلينا الآن أن ندرس الطائفة الثانية، وهي العلوم والنظريات التجريبية لنرى هل تسقط الفلسفة المادية من الميدان العلمي، وتخسر مباراتها مع الفلسفة الميتافيزيقية أم لا ؟

٢- **الطائفة الثانية** النظريات التجريبية والفلسفة الميتافيزيقية:

والآن فلندرس في هذه الطائفة النظريات التجريبية، لنعرف موقفها من الفلسفة الميتافيزيقية، ومدى قيمة هذه الفلسفة على الصعيد العلمي.

---

(١) إن هذا الدليل يختص بمن يؤمن بالقرآن، وهذا لا يكون إلا بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

أ- نظرية الحرارة الديناميكية:

إن هذه النظرية لا ندرسها من كل جوانبها، وإنما ندرس القانون الثاني من الحرارة الديناميكية القائم على التجربة الحسية، وقد تحدث عن هذا القانون العالم الطبيعي (إدوار لوزكيل) ليكشف أن الكون حادث، وليس بأزلي فقال:

(وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه، وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي، ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس، بقوة ذاتية. ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضب منها معين الطاقة، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون، لذلك فإننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون

أزلياً، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كل نشاط في الوجود، وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية، وهي بذلك تثبت وجود الله، وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه، ولا بد له من مبدأ أو من محرك أول، أو من خالق هو الإله)[١].

إن هذا القانون الثاني الحراري لا يمكن أن تنكره الفلسفة المادية التي تقول بأزلية العالم، وعلى هذه الفلسفة الخضوع لقانون الديناميكا الحرارية، لان القاعدة التي ينطلق منها هذا القانون هي الإيمان بحرارة الأجسام، والتي يثبتها الوجدان فضلاً عن التجربة، ونحن بدورنا نتساءل مع المثبتين لأزلية المادة ونقول لهم: أن هذه الحرارة المنبعثة من الأجسام الحارة إلى الباردة، لا العكس، يدور أمرها بين أحد أمرين:

الأول: أن تكون الحرارة الكونية ليست محدودة وغير منتهية.

الثاني: أن هذه الحرارة الكونية محدودة ولها بداية ونهاية.

---

(١) الله جلّ جلاله ص٢٢ سعيد حوّى.

إنه لا يوجد طرف ثالث متصور لدى الذهن، حتى إذا بطلا يثبت الثالث والآن لم يبق علينا سوى أن ننظر أي الطرفين يأخذ به ويؤيده القانون الحراري ؟

أما الاحتمال الأول القائل بأن الحرارة غير محدودة ولا نهاية لها، فهو مناقض ما أثبته القانون الحراري التجريبي القائل باضمحلال الحرارة وهبوطها والقائل بأنه لا بد من أن يأتي اليوم الذي يغيب فيه معين الحرارة من النجوم وغيرها من الشموس وهذا ما أكد عليه الدستور الإسلامي في نصوص من آياته الكونية: **﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾**[١] ، **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وأخرجت الأرض أثقالها﴾**[٢]، **﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ للكتب﴾**[٣].

وأيضاً أكد على محدودية الحرارة الكونية، القانون الثاني نفسه من الحرارة الديناميكا القائل: (... لا يمكن

---

(١) سورة التكوير، الآيتان: ١-٢.

(٢) سورة الزلزلة، الآية: ٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

أن يكون «أي الكون» أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد...) وقد تقدم هذا.

وقد أثبت هذا المدعى العالم الطبيعي " فرانك آلان " بنفس القانون الثاني من قوانين الديناميكا بقوله: (... ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة...)[١].

وإذا ثبت كل هذا يكون الأمر الأول (أن الحرارة غير محدودة ولا نهاية لها) واضح الفساد، فإذاً يثبت صحة الأمر الثاني لا محالة لأنه نقيض الأول، وإذا كان الأول فاسداً، فالثاني القائل بأن (الحرارة الكونية محدودة) لا بد وأن يكون صحيحاً. وعلى هذا يكون للعالم بداية ونهاية، لأن كل ما هو محدود، له بداية، وكل ما له بداية له نهاية، فإذا الكون له بداية فإنه قائم على

---

(١) الله جل جلاله، ص ٢٣ وص ٣٢.

أساس الحرارة المحدودة، الثابتة بالقانون الثاني من الحرارة الديناميكا.

ب - قانون الحركة الميكانيكية:

إن من الأدلة التي يمكن أن ندرس بها القيمة الميتافيزيقية ومستواها العلمي ومدى قبولها العلوم الحديثة، وها نحن نستمع بأذن صاغية إلى ما يمليه علينا قانون الحركة الميكانيكية لنأخذ حكمه الفصل الحق، ولننظر إلى جانب أي الفلسفتين ؟ (المادية، أو الإلهية) لنتقبله قبولاً حسناً.

إنه يوجد خلاف بين الفلسفة، والقوانين الحديثة في حقيقة الحركة، وهذا له مساس بموضع بحثنا هذا، وسنتعرض له في مقام آخر إن شاء الله.

إن من المسلمات في الفلسفة القديمة والحديثة أن المادة هي في تحرك دائم، ويظهر جلياً عند من يقوم بدراسة (للذرّة) من كل جوانبها، فإنه يخرج بفكرة لا رين ولا زيف فيها أن المادة في حركة دائبة.

وأن الإنسان الذي يريد أن يفهم أي الفلسفتين (المادية – أو الإلهية) على الحق مما تدعيه في قدم الكون والمادة عليه أن يدرس الفلسفة الحركية للكون ليخرج بالجواب الصحيح على سؤال هل العالم حادث أم قديم في وجوده؟، ونحن الآن في بحثنا هذا لا نريد أن ندخل في صميم الموضوع بدراسته من جوانبه، ونكون بذلك قد سبقنا الزمن، ونأتي بالشيء قبل أوانه، فلندع درس حقيقة الحركة، وسر الخلاف في ذلك في موضعه، ونكتفي الآن بأن نستدل بحركة المادة على حدوثها فقط.

إنّ (الذرّة) حسبما توصل له العلم الحديث، هي أصغر جزء تتركب وتتكون منه المادة، وهذه (الذرّة) التي لا يمكن أن ترى بالعين المجردة، عجيبة في تكونها، وتحمل الأسرار الدقيقة، فهي تتألف من ثلاثة أجزاء:

الأول: (النيترونات) وهذه تعبّر عن قلب الذرّة.

الثاني: (البروتونات) الموجبة، وهي عناصر تقع بالقرب من (النيترونات) وتدور حولها بسرعة هائلة.

الثالث: (الإلكترونات) السالبة، وهذه بعيدة عن (البروتونات الموجبة) وتقع في الدائرة الكبيرة وهي تسير في الثانية مئات الأميال.

وحركة المادة كانت تؤمن بها الفلسفة القديمة والحديثة، ولكن جاء علم الذرّة، وكشف كيفية الحركة، فالحركة شيء لا ريب فيه إذن.

والذي يهمنا في هذا كله، أن الفلسفة تقول بأن الحركة من عوارض المادة وليس شيء ذاتي لها، وبعبارة أدق، أن الحركة من الأشياء القائمة بغيرها لا بذاتها، فهي تقوم وتتقوم بالمادة، فالحركة صفة عارضة على المادة، وإذا آمنا بهذا لا بد وأن نؤمن بأن المادة شيء حادث لا قديم، لأن القديم يعني واجب بذاته، غني عن غيره في كمال مطلق فلا يتصف بغيره من الأعراض، لأنه ينافي الوجوب بالذات، والغني المطلق، فأما أن نقول بأن المادة قديمة وأزلية غنية بذاتها ، أو نقول بأنها حادثة ومحتاجة لأغيارها، فإن قلنا بأنها قديمة وأزلية لا يعدو هذا أحد أمرين لا ثالث لهما:

فأما أن نقول بأنها غنية عن الحركة، حيث أن الحركة طارئة، والقديم الأزلي لا يحتاج للأغيار، وبهذا قد خالفنا الفلسفة القديمة، والديالكتيكية الحديثة، اللتان تقولان بحركة المادة.

وإما أن نسلم ما تقول به الفلسفة والديالكتيكية من حركة المادة، وهذا يعني عدم استغناء المادة عن غيرها من الأعراض، الذي يعني في مفهومه حدوث المادة، وهذا هو المطلوب من كل هذا الاحتجاج والاستدلال المنطقي.

وبعد التسليم بأن الذرّة هي التي تشكل الركيزة الأولى لهذا الكون باعتبارها أصغر عنصر للمادة، والعالم يتألف من المادة وسلمنا بأن هذه المادة حادثة حسبما توصل له علم (الذرّة الحديث) فلا محالة من القول بأن هذا العالم حادث، ويمكن على هذا أن نشكل القياس الأول من قياسات أرسطو المنطقية، فنقول: (العالم متحرك - وكل متحرك حادث إذن العالم حادث) إذن لا أزلية للكون والعالم كما تدعيه الفلسفة المادية، ولم يساعدها الدليل

والبرهان، والفلسفة القديمة، والفلسفة الديالكتيكية، فعليها أن تعترف بتفوق وانتصار الفلسفة الميتافيزيقية الإلهية عليها !

أخي الأجل المبجل ! قد أتيت وإياك في رحلتنا وسياحتنا الفكرية اللذيذة بأدلتها العقلية ، والبراهين العلمية الرصينة ، والتجريبية الحديثة على نهاية القسم الثالث (العالم بين الأزلية والحدوث) الذي تروم منه الفلسفة الميتافيزيقية في صراعها المرير هذا إثبات الحقيقة الضائعة بين معترك أفكار المذاهب المادية المنكرة لوجود مدبر ومنشئ لهذا العالم الزاخر بآيات الإثبات في كل ذرة منه تتنفس وحركة لا تنقطع بتسبيحه إلا بإذن الله تعالى.

هذا وقد كان تاريخ مسودة هذه الأبحاث في قم المقدسة يوم السبت ٩ ربيع الثاني عام ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨٠م.

وتاريخ بعض الإضافات والتعديل في يوم السبت ٧ جمادى الثاني ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠م.

والحمد لله مع كل نفس وطرفة عين،وأحمده عل كل حمد حتى لا ينتهى مني ومن جميع خلائقه ،أو تأخذني منه سنة أو نوم، وتحمده في رمسي خلايا وذرات خلقي **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[1] وقال تعالى: **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** [2]، وأن يجعل جهدي هذا المتواضع موضع قبوله ورضاه وتحت عنايته ونداه.

العبد المثقل بذنوبه وخطاياه

ابو آدم

حسن الراضي

٧ جمادى الأولى ١٤٣١هـ الأحساء

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

القسم الرابع

ما هي
العلة الأولى للعالَم ؟

الفلسفة الميتافيزيقية وصراعها القائم مع المذاهب الأخرى حول العلة الأولى للعالم

تمهيـــد :

بعد أن قدمت الفلسفة (الميتافيزيقية الإلهية) الأدلة العقلية والبراهين المنطقية على الصعيدين الفلسفي، والتجريبي، بما لا يقبل الشك والريب، على مدعاها من حدوث العالم، وعدم أزليته، وعرفنا عدم نجاح الفلسفة المادية فيما تدعيه من أزلية العالم، وعدم حدوثه، وكيف خرجت من ميدان الاستدلال العقلي والمنطقي، من دون أن تحرز أي انتصار في هذا المجال، وثبت أخيراً للمتفرجين على هذه المعركة الاستدلالية، صحة ما ادعته الفلسفة (الإلهية) من حدوث العالم.

والآن وبعد أن ثبت أن العالم يستحيل أن يكون أزلياً، وأنه حادث وكان هذا هو الجواب على السؤال

المطروح، هل العالم قديم أم لا ؟ يأتي دور السؤال الثاني الذي انطلق من مصدر يتساوى فيه كل حي عاقل، ألا وهو الفطرة، أن ينبعث من فطرة الإنسان القائلة: (من الموجد لهذا العالم وما علته الأولى التي يستند عليها في وجوده ؟)، فلا بد من أجل أن نحدد مفهوم الجواب ليكون صحيحاً ومطابقاً لحقيقة السؤال، من دراسة موضوعه بجدية، وبشكل يلاءم روح الواقع وعلى غرار الفلسفة الرصينة، والتجارب العلمية الدقيقة، فعلينا إذن أن ننظر في جميع أجوبة المذاهب المطروحة على خشبة المسرح الفلسفي والعقلي، لننظر أي الأجوبة يفوز بقصب السبق، والوصول للواقع الموضوعي، في هذا الميدان الخطير.

قد ظهر في هذا الميدان وبدا للأفق عدة مذاهب في عالم الفلسفة، للإجابة على هذا السؤال (إذا كان هذا العالم حادثاً، فمن الذي أحدثه وأوجده بعد أن لم يكن، وما هي علته؟) وقد ذكر الفيلسوف الأكبر السيد الأستاذ الشهيد الصدر ﷺ في كتابه القيم[1] ثلاثة مفاهيم فلسفية

(١) فلسفتنا، ص ٢٠٧، وص ١٧٩، الطبعة الأولى، إيران طهران.

حاولت الإجابة على هذا السؤال المطروح، وناقش بعضها وأخذ ببعضها الآخر وهي:

ولكن لغزارة هذا الموضوع وخطورة واقع هذا السؤال المطروح، الذي ما زال حيناً من الدهر سراً مقفلاً وحصناً منيعاً شموساً على من رام فتحه، وقصد دخوله من غير بابه، من ذوي العقول المختومة بأوهام المادة الصماء، والمغلقة بسياج الطبيعة البكماء، لا يهتدون حلاً سليماً ولا يألون جهداً في تسليط أنوار وأشعة البراهين الساطعة المضيئة العقلية منها، ومن التجارب الحديثة على الطرق المؤدية لهذا الحصن المنيع، لا يمكننا أن نعيّن في هذه العجالة أن ندرس ما هو الصحيح من هذه المذاهب المطروحة للإجابة على السؤال المذكور، فلا بد قبل دراستها، من أن ندخل في مسائل تمهيدية، تكون هي المجهر، الذي يمكننا على ضوئه أن ندرس تلك المذاهب والمفاهيم، ليتسنى لنا بعد ذلك أن نتسلم الجواب الصحيح، على سؤال ما هي العلة الأولى لحدوث العالم؟ فإلى المسائل التمهيدية !

المسألة الأولى

العلـة

في المفهوم الفلسفي

قبل أن ندخل في صلب الموضوع الذي بسببه عقدنا القسم الرابع، وهو البحث عن العلة الأولى لهذا العالم الذي يحيط بنا، لا بد من فهم حقيقة العلة وتعريفها في المفهوم الفلسفي، حتى على ضوئها يمكننا أن نبحث موضع ونقطة الخلاف في هذه المسألة، بين الماديين والفلسفة الميتافيزيقية:

(للعلة) مفاهيم أربعة في الفلسفة الإلهية منها:

١- المفهوم الأول (للعلة) (هو الشيء الذي يحصل من وجوده شيء آخر ومن عدمه عدم شيء آخر)[١].

٢- (هو ما يتوقف عليه وجود الشيء فيمتنع بعدمه، ولا يجب بوجوده...)[٢].

والمفهوم الثاني له شقان:

---

(١) الأسفار ج٢ ص١٢٧.

(٢) نفس المصدر .

أ - الأول: (علة تامة وهي التي لا علة غيرها على الاصطلاح الأول)[١].

ب- الثاني: (علة غير تامة تنقسم إلى صورة، ومادة، وغاية، وفاعل)[٢].

والذي نستفيده من هذا كله والذي له مساس بموضوعنا، أن العلة في بعض أقسامها علة واجبة بالذات، أو ما يعبر عنها بالعلة (الفاعلية) وهي التي بوجودها يوجد شيء آخر وبعدمها عدمه، والآن نريد أن نفهم العلة الفاعلية للوجود ما هي ؟ بعد أن عرفنا أن هذا الكون لا يمكن أن يكون قديماً، ولا بد له من زمن وجد فيه بعد أن لم يوجد، فهل العلة الفاعلية في إيجاد هذا العالم المادة أم شيء آخر ؟

وقد ذكر الفيلسوف الكبير شهيد الإسلام الإمام السيد محمد باقر الصدر ﺋ مثالاً على العلة بكلا قسميها المادية، والفاعلية.

---

(١) الأسفار ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) نفس المصدر

(فالكرسي عبارة عن صفة أو هيئة خاصة. تحصل من تنظيم عدة أجزاء مادية تنظيماً خاصاً، ولذلك فهو لا يمكن أن يوجد دون مادة من خشب أو حديد ونحوهما. وبهذا الاعتبار يسمى الخشب علة مادية للكرسي الخشبي، لأنه لم يكن من الممكن، أن يوجد الكرسي الخشبي من دون الخشب ولكن من الواضح جداً، أن هذه العلة المادية ليست هي العلة الحقيقية، التي صنعت الكرسي فإن الفاعل الحقيقي للكرسي شيء غير مادته، وهو النجار. ولذا تطلق الفلسفة على النجار اسم العلة الفاعلية. فالعلية الفاعلية للكرسي ليست هي نفس علته المادية، من الخشب أو الحديد. فإذا سئلنا عن مادة الكرسي، أجبنا أن مادته هي الخشب، وإذا سئلنا عن الصانع له (العلة الفاعلية) لم نجب بأنه الخشب، وإنما نقول أن النجار صنعه بآلاته ووسائله الخاصة...)[(١)].

وعلى ضوء هذا المثال المذكور واتضاح أن العلة، مادية، وفاعلية، يطرح السؤال نفسه مرة أخرى قائلاً:

---

(١) فلسفتنا ص٣٣٢ – ٣٣٣.

هذا العالم الذي يحيط بنا ما علته ؟ هل أن علته الأولى (المادة) المادة التي أوجدت هذا الكون بنظامه الدقيق، وكواكبه السيارة والمستقرة وما فيه من نبات وحيوان ؟ أم أن علته الأولى شيء خارج عن حدود المادة ؟ أم أنه يوجد توفيق بين العلة الفاعلية والمادية لهذا العالم كما عليه «الديالكتيكية» وقبل هذا لا بد من تفسير (المادة) وما المقصود من لفظ المادة، حتى على ضوءه نعرف مدى نجاح التوافق الذي قامت به الديالكتيكية، للمادة والفاعلية.

المسألة الثانية

(المادة)

وحقيقتها في قاموس الماديين

(المادة) وماهيتها العلمية :

نحن في هذه المسألة نبحث عن تعريف (المادة) ومعرفة ماهيتها، عند الفلاسفة، ليتسنى لنا معرفة ما يقوله الماديون، بأن العالم أوجدته (المادة) وهي السبب الأعلى في الخلق والإبداع.

وفي هذه المسألة نتطرق لتعريف (المادة) على الصعيدين النظري، والتجريبي، لا غير، ثم نشرع بعد ذلك في المذاهب التي تدور حول وجود العالم بعد التسليم بحدوثه، وهذا ما سندرسه في المسألة المقبلة إن شاء الله.

(المادة) على الصعيد النظري :

وعلى هذا الصعيد النظري نبحث عن معنى ومدلول ومفهوم (مادة) في قاموس الفلسفة (المادية) الذي يقول أن المادة هي العلة لهذا الكون بما فيه من نظام دقيق عجيب.

نعم إنهم قالوا في تعريفها: (أنه لا يجب اعتبار المادة ما هو مادي مجسد وحسب، فالضوء مثلاً يمثل شكلاً غير مادي من وجود المادة) [١]هذا ما قاله: (لينين) في تعريف المادة !

وقال روجيه غارودي: (هي الواقع الموضوعي، المستقل عن الروح)[٢].

ويقول في مقام آخر: (التكلم عن المادة بصورة عامة يعني محو الفوارق الكيفية للأشياء بدمجها كلها في مفهوم واحد، عندئذ تفقد هذه المادة وجودها الحسي فتكون تجريداً فارغاً، ويكون من العبث التساؤل عن ماهيتها) [٣].

ويقول الكاتبان السوفييتيان (سبيركين وياخوت) في تعريف المادة: (يحيط بنا عدد لا نهائي من الأشياء والظواهر، أحجار، وأشجار، رميلات وشمس، صحاري،

---

(١) المادية بين الأزلية والحدوث ص٣٨ عن أسس المادية ص٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩ ، نقلاً عن النظرية المادية ص٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧ ، نقلاً عن النظرية المادية ص٧٣.

بحار ومحيطات، نجوم وكواكب، حيوانات، وكثير كثير غير ذلك . نحن نسمي هذا كله بكلمة واحدة : «المادة»)[١].

إن الناقد البصير لهذه التعاريف المتعددة لبيان مدلول (مادة) في القاموس (الديالكتيكي) يسجل عليها ملاحظتين:

الأولى: أن هذه النصوص متناقضة فيما بينها، فبعضها تعرف (المادة) بأنها عبارة عن ماهية غير محسوسة ولا يمكن تعريفها، ومرة أخرى تعرف بأنها ليس من اللازم أن تكون شيئاً ملموساً، فأحياناً تكون كذلك، وأخرى لا تكون مثل الضوء المنبثق من المادة مع شيء غير مادي، وثالث يعرفها بأنها هي ما يحيط بنا من كواكب، ونجوم وأشجار ... إلخ. ولم نعرف السر في هذا التناقض الواضح، الذي لا يمكن على ضوءه معرفة العلة الأولى لهذا الكون، حينما تدعي (الديالكتيكية) أن المادة هي العلة الأولى لهذا العالم.

---

(١) المادية بين الأزلية والحدوث ، ص ٣٨ ، نقلاً عن أسس المادية ، ص٢٨.

الثانية: أن هذه النصوص في تعريف المادة، نراها لا تنسجم كلياً مع مرحلة الإثبات، والاستدلال، على أن المادة هي العلة الأولى للعالم، فحينما نسألهم، أي (مادة) تقصدون ؟ فإن (المادة) في قاموسكم لها عدة مدلولات:

وهذه المداليل المذكورة، إما أن تعني من المادة الأشياء الواقعة تحت إحدى الحواس الخمس، وإما أن لا تقع وتكون من الأشياء الذهنية التي لا وجود لها في الخارج، فتكون المادة من التصورات العقلية المحضة، كتصورنا بأن بناية مؤلفة من عشرين طابقاً بين السماء والأرض مع أنه لا وجود لها في الخارج.

والطرف الأول من القسمة العقلية، أيضاً يدور أمره بين طرفين لا ثالث لهما فإما أن تكون (المادة) المحسوسة تعني بعض ما في الكون مثلاً كالشمس أو القمر، أو الأرض، أو النجوم... .

وإما أن تكون (المادة) هي كل ما في الكون.

فإن كان المقصود هو الأول، فهذا ما تبطله الفيزياء الحديثة حيث اكتشفت أن المواد التي في الكون تشترك

في عناصر معينة، وكون بعضها علة للآخر، يكون ترجيحاً بلا مرجح، وتمييزاً لها على غيرها ممن يشترك معها في عناصرها، هذا أولاً، وثانياً يحتاج إلى الإدلاء بالدليل والبرهان العلمي، أن هذه المادة وجدت قبل تلك المادة، لتكون علة لها، وإلا كيف تكون علة لمساويها في الوجود؟!

وإن كان ما ورد في قاموسكم لتعريف (المادة) يعني كل ما يحيط بنا من (أحجار وأشجار، رميلات وشمس... ومحيطات، نجوم وكواكب... نسمي هذا كله بكلمة واحدة (المادة) وهذا ما عليه الكاتبان السوفييتيان، فهذا ما يلزم منه الدور، لأن (المادة) على هذا تكون علة لنفسها، لأن كل ما في العالم هو مادة، فإذاً لا يمكن أن تكون لشيء آخر بل لا يوجد شيء آخر غير المادة، فلا بد من أن تكون موجودة قبل أن تكون موجودة، وموجدة لنفسها بنفسها، وهذا مستحيل عقلاً، ولم تأخذ به جميع الفلسفات على اختلاف مشاربها. فالقول بأن (المادة) هي العلة الأولى باطل نظرياً.

وإن كان مقصودكم من ماهية المادة هي ما لا يحس ولا يلمس بل لا يمكن تعريف ماهيتها كما عبر عن هذا روجيه غارودي (ويكون من العبث التساؤل عن ماهيتها) فأين ما بنيتم عليه آثاره الإيجابية وقلتموه بأن الأشياء تنشأ بسبب التناقضات في المادة والتصارع الداخلي، فإنه مع محو الفوارق الكيفية عن المادة، من أين يحصل التناقض في داخلها، وإن سلم التناقض، فالعلة الأولى مجهولة لأنها غير محسوسة، وتعتبر من الأمور الغيبية وهذا ما اعترضتم به على (الفلسفة الإلهية الميتافيزيقية).

وبعد كل ما عرضناه وحللناه تحليلا علميا منطقيا تحت قبة جميع المذاهب الفلسفية المادية الديالكتيكية، والميتافيزيقية الإلهية، ظهر لكل المراقبين والمتفرجين في ساحة الاستدلال العلمي بطلان القول: بأن المادة هي العلة الأولى لحدوث هذا الكون نظرياً!

المسألة الثالثة

(المـــادة)

في المفهوم العلمي التجريبي

تمهيد:

في ضوء تحقيق المسألة التي أصبحت نقطة للصراع بين الفلسفة الإلهية وبقية المذاهب الأخرى، خصوصاً المذهب المادي، ألا وهي العلة الأولى لانبثاق الكون، والتي لم تزل عند البعض (لغزاً) مبهماً، لم يزل العلم يفتش عن مفتاحها في ساحة هي مليئة بالأسلاك الشائكة، الواقعة سداً منيعاً في العثور عليه من بين قنواتها الضيقة.

ولكن وبعد برهة من الزمن، وصل العلم حداً من مراتب الكمال، والوصول إلى ما كان سراً دفيناً في الماضي، خصوصاً في المجال التجريبي، الذي امتد، واتسع صدره، وفتح عينيه على كل ما هو قابل لأن يخضعه للتجربة في مختبره، فلم يعد بعد هذه الأضواء والأشعة الجبارة التي عم نورها دنيا الطبيعة شيء لا يرى ولا يحس مما كان قابلاً وخاضعاً للتجربة من أفراد

الطبيعة، فقد أخرجت لنا تلك الأشعة العلمية، واليد التجريبية المتحركة عبر أجزاء وحنايا الطبيعة، كل ما كان مختبئاً فيها لا نعلم كنهه من ذي قبل .

وبهذه العلوم وفضلها يمكننا أن نصل إلى السر المقفل، والمعجزة المجهولة من عدم معرفة العلة الأولى لانبثاق هذا العالم العجيب، ومعرفة شخصها لنميزها، ونسعى إليها، وتكون أنشودتنا في حياتنا وجهادنا، وفي كل تصرفاتنا، وتحركاتنا، من أجل سعادتنا، وإسعاد مجتمعاتنا البشرية، ونحن في هذه المسألة وفي المسائل المقبلة نسعى جاهدين في البحث عن معرفة العلة الأولى لهذا الكون، وإحقاق الحق من المذاهب التي قدمت نظرياتها في هذا المضمار، ولا بد من دراسة هذا الموضوع بشكل موسع، ولنبدأ في هذه المسألة بدراسة ماهية (المادة)، ومعرفتها على الصعيد (العلمي) التجريبي والنظري، وفي المسألة المقبلة على الصعيد (الفلسفي) ليمكننا بعد هذه الدراسة، الدخول في طرح فكرة المذهب (المادي) من الفلسفة الديالكتيكية، والمذهب الإلهي من الفلسفة (الميتافيزيقية) والمذهب الصدفي،

القائل بأن الكون نشأ من الصدفة، لنرى أي المذاهب، يحظى بالنصيب الأوفر، من موافقة، الأدلة العلمية، والبراهين المنطقية، ليكون بالتالي مقبولاً لدى طالب الحقيقة ؟

(المادة) في المفهوم العلمي النظري والتجريبي:

الكلام يدور حول معرفة حقيقة (المادة) لكي يتبين لنا على ضوء هذه المعرفة ما إذا كانت (المادة) هي العلة الفاعلة لهذا العالم والموجدة له كما تدعيه الفلسفة (المادية)، أو أن المادة المدروسة، والمقصودة عند الماديين، عاجزة أن تكون هي العلة الأولى لهذا الكون، وتتنافى مع ما توصل له العلم؟

وفي هذه الدراسة، نعرض أولاً النظرة العلمية ووجهة نظر العلم على الصعيد النظري (للمادة)، ثم بعد ذلك ندرس إعطاء وجهة نظر العلم، في المجال التجريبي، لنعرف مدى صحة تلك النظرة العلمية، ونرى موقفهما من الفلسفة المادية.

أ- (المادة) في المفهوم العلمي النظري:

ذكر السيد الأستاذ الفيلسوف الأكبر الشهيد الإمام الصدر ﷺ في هذا المضمار فكرتين علميتين قديمتين منذ آلاف السنين، وهاتان الفكرتان، كل واحدة منهما أعطت مفهوماً خاصاً (للمادة)، ولكن العلم التجريبي برر موقف كل من الفكرتين، بل حاول عبر تجاربه التي توصل إليها من أن يعطي كلاً منهما وبدون أن يخدش في كل من الفكرتين موقفها المناسب لها، وها نحن الآن نذكرهما بالترتيب.

الفكرة الأولى فكرة (الإغريق)[١] :

وهذه الفكرة تقول: (إن جميع المواد المعروفة في دنيا الطبيعة، إنما تتركب من عدة مواد بسيطة محدود، تسمى بالعناصر)[٢] ، والعناصر عندهم هي أربعة: (الماء – الهواء – التراب – النار)[٣] ، وهذه ما يعبرون عنها

---

(١) بشر بها (اليمبيد وكليس) قبل الميلاد ٤٩٠ ، العناصر ص٩ ، مؤلفه مبابي أحمد.
(٢) فلسفتنا ، ص٣٣٣ ، وص ٢٨٦.
(٣) فلسفتنا ، ص٣٣٤ ، وص ٢٨٦.

بالعناصر البسيطة الأولية لكل ما في الكون، وبعض من علماء العرب زاد هذه عناصر ثلاثة (الكبريت – الزئبق – الملح)[١]، وكل هذه العناصر لا يمكن أن يتحول بعضها إلى الآخر وذلك لأن خصائص الماء مثلاً من السيلان يمنع من تحوله إلى تراب حيث أن خصائص العناصر تكون سداً منيعاً تفصل بين هذه العناصر.

الفكرة الثانية :

وكانت هذه تعرف (المادة) بأنها (تتكون من دقائق صغيرة جداً، تسمى الذرات)[٢].

وهذه الفكرة مشتركة بين نظريتين:

الأولى: النظرية الانفصالية وقد أخذ بها الفيلسوف الإغريقي (ديمقريطس) وكانت تقوم على (أن الجسم مركب من أجزاء صغيرة يتخلل بينها فراغ، وأطلق على تلك الأجزاء اسم الذرّة، أو الجزيء الذي لا يتجزأ)[٣].

---

(١) فلسفتنا ، ص٣٣٥ ، وص ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(٣) فلسفتنا، ص ٣٣٤، وص ٢٨٦ .

الثانية: النظرية الاتصالية:

وهذه أخذ بها وتبناها (أرسطو ورجال مدرسته) الذين يقولون بأن الجسم (ليس محتوياً على ذرات، ومركباً من وحدات صغيرة، بل هو شيء واحد متماسك يمكننا أن نقسمه ونخلق منه أجزاء منفصلة بالتقسيم، لا أن يشتمل سلفاً على أجزاء كهذه) [١].

ب - (المادة) في المفهوم العلمي التجريبي:

كان الكلام السابق يدور حول تعريفات (المادة) من الناحية العلمية النظرية، والآن ندرس الموقف التجريبي من هذه المسألة، لننظر فيما إذا كان يعطينا نفس القيمة التي تسلمناها من الموقف النظري ؟، أو أنه يدخل عليها تعديلات جديدة حسبما لمسها في ميدانه التجريبي ؟ أو أنه يقف من تلك القيمة والنتيجة موقفاً سلبياً لا يرتضيها؟

ونحن تباعاً للفيلسوف الأكبر الشهيد الإمام الصدر ﵀ نذكر موقف الفيزياء الحديثة من كل من الفكرتين العلميتين في تعريف (المادة) في مقامين:

---

(١) فلسفتنا، ص ٢٨٦، الطبعة الثالثة.

الأول: الفيزياء الحديثة والفكرة الأولى.

الفكرة الأولى: كانت تعبر عن (المادة) بأن كل ما في الكون والطبيعة مؤلف من عناصر بسيطة محدودة، وفعلاً بعد ما جاءت الفيزياء الحديثة، وقامت بالدرس والتدقيق، ودخلت في أعماق الطبيعة بفضل التجربة، أفصحت أخيراً، أن عناصر الطبيعة والكون محدودة كما وأعلنت عن تلك العناصر وأهميتها في تركيب المادة على اختلاف الشكل لها وها نحن نذكر ما اكتشفته الفيزياء الحديثة من تلك العناصر[١].

جدول رقم (١)[٢]

العنصر	العدد الذري	العنصر	العدد الذري	العنصر	العدد الذري
هيدروجين	١	نيوبيوم	٤١	بوتاسيوم	١٩
هليوم	٢	تكنيتيوم	٤٣	كالسيوم	٢٠
ليثيوم	٣	روديوم	٤٥	سكانديوم	٢١
بريليوم	٤	فضة	٤٧	تيتانيوم	٢٢
برون	٥	إنديوم	٤٩	فاناديوم	٢٣

(١) ذكر الفيلسوف الأكبر أنها ما تقرب من مئة صـ٢٨٧ ط أولى ١٤٢٦هـ.

(٢) التكامل في الإسلام، ج ٣ ص ١٢٨.

العنصر	العدد الذري	العنصر	العدد الذري	العنصر	العدد الذري
كربون	٦	يورانيوم	٩٢	كروم	٢٤
ألومنيوم	١٣	نيتروجين	٧	منجنيز	٢٥
سيلكون	١٤	أكسجين	٨	حديد	٢٦
فوسفور	١٥	فلور	٩	كوبالت	٢٧
كبريت	١٦	نيون	١٠	نيكل	٢٨
كلور	١٧	صوديوم	١١	نحاس	٢٩
أرجون	١٨	مجنيزيوم	١٢	خارصين	٣٠
جاليوم	٣١	سيلينيوم	٣٤	روبيديوم	٣٧
جرمانيوم	٣٢	بروم	٣٥	يتريوم	٣٩

فهذه العناصر التي توصلت لها الفيزياء الحديثة حينما قامت باستنطاق الطبيعة، وكل جسمٍ في دنيا العالم لا يخلو من أحد هذه العناصر المذكورة آنفاً، ففي بعض الأجسام تحمل عنصراً واحداً كـ (الذهب، والنحاس، والحديد، والرصاص، والزئبق) (١)، وبعض الأجسام يتألف من عنصرين، أو عناصر عديدة، ك (الماء المركب من ذرة أوكسجين، وذرتين من الهيدروجين، والخشب المركب في الغالب من الأوكسجين والكربون والهيدروجين)(٢)،

---

(١) فلسفتنا، ص٣٣٥. وص ٢٨٧ ، ط الأولى.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٧.

فالأجسام على هذا منها ما هو بسيط يحمل عنصراً واحداً، وبعضها ما يحمل أكثر من ذلك.

. . . الفيزياء الحديثة والفكرة الثانية:

دللت الفيزياء الحديثة على صحة النظرية الأولى من الفكرة الثانية، وهي النظرية الذرية الانفصالية التي تبناها الفيلسوف (ديمقريطس) بخمسة قرون قبل الميلاد، وكانت هذه النظرية مطابقة لما أثبتته التجارب الذرية، من أن العناصر البالغة (٩٢) عنصراً، كل عنصر منها يحتوي في داخله على ذرات صغيرة جداً، حتى أن المليمتر الواحد من المادة، يحمل ملايين الذرات الدقيقة، والذرّة هي الجزء الذي لو قسمت لزالت خصائص ذلك العنصر، أو كما عبر العلم الحديث، عن (الذرّة) بأنها الجزء الذي لا يتجزأ.

(والذرّة) التي هي عبارة عن جزء من ملايين الأجزاء الذي يحويها عنصر واحد من العناصر المتقدمة الذكر، تتقوم هذه (الذرّة) بثلاثة أطراف:

الأول: (النواة) وهي قلب الذرّة والمركز الأوسط، وهذه النواة تحوي في داخلها (النيترونات) ولا تحمل هذه

أي شحنة سالبة أو موجبة، وتم اكتشافه بعد زمن رذروف سنة ١٩٣٠م[١].

الثاني: (البروتونات) وهذه تقع بالقرب من النواة وتدور حولها، كما وأن كل وحدة (بروتون) تحمل شحنة كهربائية موجبة.

الثالث: (الإلكترونات) السالبة، وهذه أيضاً تحمل شحنة كهربائيــة ولكنها سالبة ، وهي بعيدة عن (البروتونات) الموجبة كالبعد القائم بين كرتنا الأرضية والمجموعة الشمسية مع حفظ النسبة، كما وأن (الإلكترونات) السالبة تدور حول النواة الذرية بسرعة فائقة تبلغ (سبعة آلاف مليون مرة دورة في الثانية) [٢].

وهكذا نفهم أن كل مخلوق يحمل في داخله الزوجية، فالزوجية هي أمر ضروري لاستمرار الحياة والنظام، فليس ضرورتها للمادة العضوية، بل هي ضرورة حتى

---

(١) قصة العناصر، ص ١٣٤، لمؤلفه مبابي أحمد.

(٢) الله بين الفطرة والدليل ص٨٧.

لما نعبر عنه بالجامد غير النامي، (فالمادة) بما هي قائمة بالزوجية، الموجبة المعبرِة عن (البروتينات) والسالبة المعبرة عن (الإلكترونات) التي تدور حول النواة.

و(البروتينات) الموجبة، والإلكترونات (السالبة) يختلف عددها ووحداتها باختلاف العناصر التي تحويها، فقد بينا فيما سبق أن كل عنصر من العناصر البسيطة يحمل في طياته ذرات عديدة، وكل ذرة تتألف من ثلاثة أطراف، فعدد وحدات هذه الأطراف يتحدد من خلال رقمه الذري، فعندنا مثلاً (الهيدروجين) الذي يحمل رقم (١) فهذا يعني أنه يحمل (إلكتروناً) واحداً، و (بروتوناً) أيضاً لأن رقمه الذري واحد، وكذا كل عنصر تتصاعد وحداته السالبة والموجبة من خلال تصاعد وتزايد رقمه الذري، فـــ(اليورانيوم) الذي يشكل رقمه الذري (٩٢)، فنواته المركزية تحمل (٩٢) وحدة إلكترونية سالبة، ومثله اثنين وتسعين وحدة (بروتينية) موجبة، وما هذا التكاثر في الوحدات السالبة والموجبة إلا من خلال تصاعد عدد رقمها الذري.

وأخيراً تبين لنا من خلال دراستنا (للذرّة) كيف أن عناصرها الذرية هي منفصلة فــ (النيترونات) تقع في قلب الذرّة، و (البروتينات) تقع خلف النواة الذرية و (الإلكترونات) تدور حول (البروتينات) وتبعد عنها بمسافات بعيدة شاسعة، وهذا ما تشير إليه النظرية الانفصالية القائلة بأن الجسم الواحد مركب من أجزاء صغيرة يتخللها فراغ.

وقد عبر عن هذا الباحث الإنجليزي (رذروف) عام ١٩١١م، قائلاً: (أن الذرّة تحتوي على جسيمات مكهربة هي عبارة عن (بروتون) يسبح حوله كهارب أدق منه تعرف (بالالكترونات)، ويحمل البروتون معظم وزن الذرّة، لأن وزن الكهارب من الصغر بحيث يمكن تجاهله، فوزن الكهرب الواحد بالنسبة إلى وزن (البروتون) يساوي ١/١٨٠٠ تقريباً، ويختلف عدد الكهارب المحيطة بالبروتون، باختلاف العناصر، فذرة عنصر (الهيدروجين) مثلاً لها كهرب واحد يسبح حول (البروتون) في مدار واحد.

وذرة عنصر الهليوم لها كهربان يسبحان في مدار واحد أيضاً. بينما ذرة (الآزوت) لها سبعة كهارب يسبح اثنان منها في مدار، والخمسة الباقية تسبح في مدار آخر أوسع من (المدار الأول)[١].

إلى هنا فهمنا موقف الفيزياء الحديثة من الفكرة الثانية المنطوية على النظرية الأولى الذرية، وكيف ثبت صحتها على الصعيد التجريبي الحديث.

وأما نظرية (أرسطو) القائلة بأن الجسم (ليس محتوياً على ذرات) فلا أظن لها نصيب من النجاح، بعد أن انطلق العلم من عقاله وراح يفتش عن أسرار الطبيعة المغلقة، وهتك أستارها الجبارة، فجلس منها مجلس الجنين من رحم أمه، يعب ويتغذى من كنوزها الغنية بالثروة الثمينة، ولم يكتف بما توصل له من غنائم، بل هو عازم على السير في طريقه قدماً، فها هو يفصح لنا في كل يوم عن مغنم غنمه، وعن لغز من ألغازها حله، فمن أين يكون لهذه النظرية نصيب من النجاح.

---

(١) قصة العناصر ص١٣٤ لمؤلفه: مبابي أحمد.

(المادة) وتغيرها المستمر:

بعد أن أكملنا دراسة الفكرتين العلميتين المتقدمتين على ضوء الفيزياء الحديثة، الآن ندرس حقيقة المادة وعناصرها على ضوء ما توصلت له الفيزياء الحديثة أيضاً، ليتسنى لنا معرفة جوهر الحقيقة وما تمتاز وتتمتع به من مزايا، وسيكون درسنا لها من هذا الجانب في مقامين:

المقام الأول: دراسة تبدل العناصر الذرية، وتغيرها طبيعياً.

المقام الثاني: معرفة أن هذه العناصر ليست ذاتية للمادة، لا مكان رفعها بالوسائل العلمية.

أ- أما المقام الأول فقد أثبتته التجارب في الحقول التجريبية، على صعيد التغير، والتبدل في العناصر الذرية، (فقد لوحظ أن عنصر (اليورانيوم) يولد أنواعاً ثلاثة من الأشعة، هي: أشعة ألفا، وبيتا، وجاما، وقد وجد (رذرفورد) حين فحص هذه الأنواع، أن أشعة (ألفا) مكونة من دقائق صغيرة، عليها شحنات كهربائية سالبة،

وقد ظهر نتيجة للفحص العلمي، أن دقائق (الألفا) هي عبارة عن ذرات (هليوم) بمعنى أن ذرات (هليوم) تخرج من ذرات (اليورانيوم) ، أو بتعبير آخر أن عنصر (هليوم) متولد من عنصر (اليورانيوم))[١].

والذي نستفيده من هذا الاكتشاف الذي قام به (رذرفورد)، أن ذرات العناصر، والمقومة لها ليست ذاتية للعناصر، وإلا لاستحال انفكاكها عن تلك العناصر وتقويم عناصر أخرى، وإلا بأي تفسير يمكننا أن نفسر هذا التحول والانتقال الدفعي من عنصر (اليورانيوم) في أشعته الخفيفة إلى عنصر (الهليوم) الذي هو أثقل بكثير من عنصر (اليورانيوم) في وزنه الذري، وبعد أن كان عنصراً (يورانيوماً) أصبح عنصراً (هليوماً) ؟

وما هذا إلا دليل واضح أن ذرات العناصر ليست ذاتية لها، وهذا لا يمكن تفسيره بالشذوذ والندرة فإن هذه التغيرات لم تختص بعنصر دون آخر فقد شوهد هذا في عناصر أخرى، فإن (عنصر اليورانيوم، بعد أن شع ألفا،

---

(١) فلسفتنا، ص٣٣٧، وص ٢٨٩، ط الأولى.

وبيتا، وجاما، يتحول تدريجياً إلى عنصر آخر، وهو عنصر الراديوم، والراديوم أخف في وزنه الذري من اليورانيوم، وهو بدوره يمر بعدة تحولات عنصرية، حتى ينتهي إلى عنصر الرصاص)[١].

إن كلامنا هذا كله حول المقام الأول من تبدل العناصر وتحولها من عنصر إلى عنصر آخر وتحول مركباتها من نوع إلى نوع بشكل طبيعي من دون تدخل يد المخلوق سوى تدخل يد الخالق سبحانه حسبما أجراه بحكمته المتعالية ، ودقته اللامتناهية!

ب- وأما المقام الثاني، من تحويل بعض العناصر إلى عناصر أخرى، وهذا ما دللت عليه التجارب الحديثة في الحقول (الميكانيكية) الناجحة، فهذا (رذرفورد) قام (بأول محاولة لتحويل عنصر إلى عنصر آخر، وذلك أنه جعل نوى ذرات (الهليوم) دقائق الألفا، تصطدم بنوى ذرات (الآزوت) فتولدت (البروتونات) أي نتجت ذرة (هيدروجين) من ذرة (الآزوت)، وتحولت ذرة الآزوت إلى أوكسجين،

(١) المصدر نفسه، ص٣٣٧، وص ٢٨٩، ط الأولى.

وأكثر من هذا، فقد ثبت أنه من الممكن، أن تتحول بعض أجزاء الذرّة إلى جزء آخر فيمكن للبروتون أثناء عملية انقسام الذرّة أن يتحول إلى نيوترون، وكذلك العكس)[١].

هذا ولم يقف العلم الحديث عند هذا الحد، بل راح يخضع المادة تحت وسائله المتطورة، ويراودها كيف ما شاء حتى توصل إلى ما كان مجهولاً في العصور الماضية، وقد أفلح في تجاربه لتسخير المادة، فقد بدل المادة إلى طاقة، وحول الطاقة إلى مادة (أي نزع الصفة المادية للعنصر بصفة نهائية، وذلك على ضوء جانب من النظرية النسبية لــ (آينشتين)، إذ قرر أن كتلة الجسم نسبية، وليست ثابتة، فهي تزيد بزيادة السرعة، كما تذكر التجارب التي أجراها علماء الفيزياء الذرية على الإلكترونات التي تتحرك في مجال كهربائي قوي، ودقائق (بيتا) المنطلقة من نويات الأجسام المشعة، .. فلم يعد في الكون عنصران متمايزان: أحدهما (المادة) التي يمكن مسها وتتمثل لنا في كتلة، والآخر الطاقة، والتي لا

---

(١) فلسفتنا ، ص٣٣٧ ، وص ٢٨٩، ونظريات في الفكر الديني.

يمكن أن ترى، وليس لها كتلة، كما كان يعتقد العلماء سابقاً، بل أصبح العلم يعرف أن الكتلة ليست إلا طاقة مركزة)[١].

وقد قال (آينشتاين، في معادلته: أن الطاقة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء، وسرعة الضوء تساوي ٨١٦,٠٠٠ ميلاً في الثانية، كما أن الكتلة = الطاقة / مربع سرعة الضوء) [٢].

وتحول المادة إلى طاقة أصبح أمراً واضحاً، بعد أن فجرت القنبلة الذرية، وما هذه القنبلة إلا مادة في مرحلتها الأولى قبل تفجيرها، فا (المادة تحولت إلى طاقة عن طريق التوحيد بين نواة ذرة (الهيدروجين) ونواة ذرة (ليثيوم) فقد نتج عن ذلك نواتان من ذرات (الهليوم) ، وطاقة هي في الحقيقة الفارق بين الوزن الذري لنواتين من الهليوم، والوزن الذري لنواة هيدروجين ونواة ليثيوم، والطاقة تحولت إلى مادة، عن

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٣٧، وص ٢٩٠ ، ط الأولى، ومطارحات في الفكر الديني .

(٢) فلسفتنا، ص٣٣٧، وص ٢٩٠.

طريق تحويل أشعة جاما - وهي أشعة لها طاقة وليس لها وزن - إلى دقائق مادية، من (الإلكترونات) السالبة، و (الإلكترونات) الموجبة التي تتحول بدورها إلى طاقة، إذا اصطدم الموجب منها بالسالب، ويعتبر أعظم تفجير للمادة توصل إليه العلم، هو التفجير الذي يمكن للقنبلة الذرية، والهيدروجينية، أن تحققه، إذ يتحول بسببهما جزء من المادة إلى طاقة هائلة)[١].

لقد تعذر على العلماء في القرون الوسطى تحويل عنصر إلى عنصر آخر، ولكن في القرن العشرين قد تم ذلك بمعونة الوسائل المستحدثة، ففي سنة ١٩١٩م تمكنوا من تفجير القنبلة الذرية والتي كانت عن طريق تحويل بعض العناصر إلى عناصر أخرى وهذا ما ذكرناه آنفاً.

هذا وقد دلت الأبحاث على الصعيد التجريبي أن لا مادة توجد أصلاً، وكل ما يوجد في دنيا الطبيعة هو ما يعبر عن طاقة، وأن المادة في حقيقتها طاقة، وهذا ما عبر عنه (أينشتاين) بقوله: (إن في الذرّة طاقة كبيرة

---

(١) فلسفتنا ص ٣٣٨ و ٢٩١ - التكامل في الإسلام ج٣ ص٩٠.

يمكن تسخيرها والإفادة منها. وإن المادة صورة من صور الطاقة. وأن الجرام الواحد من المادة يتحول إلى ألف مليون مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة: أركك) أو إلى ٢٥ مليون كيلو وات في الساعة، أي ما ثمنه نحو ٥٥٠ ألف دينار) [١] حينما كان الدينار قيمته ١×١٢ ريال سعودي آنذاك !

وقد أكد على هذه النظرية في مقام آخر قائلاً: (إن العالم مجموع قوى كهربائية ومغناطيسية أو «كهرطيسية». فأين المادة التي يتشدق بها المادي ضارباً بيده على منضدته قائلاً هذه هي المادة) [٢].

وهذه النتائج المعلنة لم تأتي نتيجة الصدفة والاتفاق، بل جاءت نتيجة التجارب العلمية المحسوسة، فحتى أولئك التجريبيين لا يمكنهم إنكار هذه الأقوال، فإنهم لا يؤمنوا إلا بما هو محسوس، وهذا القول بأن لا مادة في أصل الكون، لا محيص لهم بالإعراض عنه، وما تفجير

---

(١) التكامل في الإسلام، ج٣ ص٩٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ج٣ ص٨١.

القنبلة في هذا العصر إلا دليل واضح على أن المادة تنقلب إلى طاقة مدمرة، (فإن كيلوجراماً واحداً من الأورانيوم ٢٣٥، يطلق حين تحطيمه طاقة بقدر ما يطلق ٢٥٠,٠٠٠ كيلوجرام من الفحم)[١].

إن هذه الطاقة العجيبة المدمرة، والتي تهلك الحرث والنسل، يحدثنا العلم الحديث عن مصدرها ومن أين تنبع، ومدى حجم هذا المصدر من تناهيه في الصغر، ما يحير الألباب، ويبهر العقول، ولا يمكن أن يفسر هذه الطاقة وما أودع فيها من قوى، إلا بالمصدر الأعلى لهذا الكون، والموجد هذه القوى، إنه الله الذي دلل لنا على قدرته وجبروته ودقته في كثير من آيات الذكر الحكيم، دون أن يفصل لنا موضوعات حكمته ودقته، وذلك من أجل أن نعتمد في ذلك على تطلعاتنا وسعينا الحثيث خلف غوامض الأمور، وكنه أسرار الطبيعة، بما أودع فينا من قوى ومواهب، يمكننا على إثر استجوابها أن تعطينا، بعض ما أودع الله سبحانه في الطبيعة من أسرار دفينة، وأنظمة هي في منتهى الدقة، وذلك لتكون

---

(١) نفس المصدر السابق، ج٣ ص٨٣.

نبراساً ونوراً يسير عليه المهتدون في التعرف على المبدأ الأول سبحانه، الذي أوجد هذه القوانين والطبيعة، ونحن في هذا المقام نذكر بعض ما توصلت له الكشوف الحديثة من الأسرار الغامضة، وما هذا إلا كقطرة في بحر لجي، مما هو خفي علينا، ولم يتمكن العلم من الإفصاح عنه بعد.

إن (الذرّة) مما صدق عليها قوله تعالى: **﴿وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾**[١] فقد دلل العلم والكشوف الحديثة، أنها في منتهى الصغر، بحيث لو جمعت عشرة ملايين ذرة بشكل كروي لما بلغ كل هذا مليمتر واحد، وقطرها يبلغ ١/١٠٠,٠٠٠[٢] من المليمتر. هذا عن نفس قطر الذرّة، وأما عن قطر نواتها الذي هو عبارة عن مجموعة (النيترونات) فهو يبلغ ما يساوي واحد من مائة ألف جزء من الذرّة ١/١٠٠،٠٠٠، ولو جمع من نوى الذرّة مليار نواة، لما أمكن رؤيته بأقوى المجاهر!![٣].

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٣٨.

(٢) التكامل في الإسلام.

(٣) المصدر السابق نفسه.

هذا ومع ما هي عليه من الدقة في الصغر، كيف تطلق من طاقة هائلة مدمرة عند تحرر (البروتون) الموجب والإلكترون (سالب) من رق (النيترونات قلب الذرّة) واصطدام بعض هذه العناصر بالبعض الآخر، ومن أراد أن يعرف خطورة هذا الانفجار فعليه أن يرجع إلى الحرب العالمية الأولى والثانية.

نتائج الفيزياء الحديثة:

بعد دراسة المادة في المفهوم التجريبي على ضوء الفيزياء الحديثة، يمكننا أن نخرج بنتائج مسلمة لأن كل ما بحثناه في حدود التجربة الملموسة لا يعرض له الشك ومأخوذ به عند مختلف المذاهب، وما هذه النتائج التي نطرحها هنا إلا خلاصة تلك الأبحاث، وهي تلتقي معها من جهة علمية، وصورة مصغرة عن تلك الأبحاث المطروحة في المفهوم التجريبي، وقد ذكر السيد الأستاذ الفيلسوف الأكبر الشهيد الصدر ﵀عقيب دراسته للمادة على ضوء الفيزياء الحديثة أربع نتائج، نذكر ها هنا باختصار، ليمكننا على ضوءها الاستفادة منها في عرض

المذهب المادي، ومناقشته، لنرى هل هو موافق لهذه النتائج أم لا ؟

أ - (أن المادة الأصلية للعالم، حقيقة واحدة مشتركة، بين جميع كائناته وظواهره، وهذه الحقيقة المشتركة هي التي تظهر بمختلف الأشكال، وتتنوع بشتى التنوعات) [١].

ب- (أن خواص المركبات المادية كلها عرضية بالإضافة إلى المادة الأصلية. فالماء بما يملك من خاصة السيلان ، ليس شيئا ذاتيا للمادة التي يتكون منها ، وإنما صفة عرضية) [٢].

فالصفة المائية والسيلان يزولان حينما نفرز أحد العنصرين البسيطين عن الآخر في تركيبته ، فإذا فصلنا ذرة الهيدروجين عن الأوكسجين تحول الماء السائل إلى غاز،وهو دليل أن صفات المركبات عرضية وليست ذاتية وإلا لما زالت.

---

(١) فلسفتنا ص٣٤٠.

(٢) فلسفتنا ص٣٤٠.

جـ- وقال الفيلسوف الأستاذ السيد الشهيد الصدر تتُّئل في معرض حديثه عن زوال المادة واضمحلالها وعدم صلاحها لأن تكون هي العلة الأولى لهذا العالم ،قال تتُّئل: (إن خواص العناصر نفسها، ليست ذاتية للمادة أيضاً، فضلاً عن خصائص المركبات، ... فليست صفات الراديوم، والرصاص والآزوت، والأكسجين، ذاتية للمواد، التي تتمثل في تلك العناصر، ما دام في الإمكان تبديلها البعض بالبعض)[١] .

وهكذا تابع أستاذنا تتُّئل عرض نتائج الفيزياء الحديثة ليدلل بها على بطلان رأي المذهب المادي في نظريته فيقول تتُّئل:

د - (وأخيراً، فنفس صفة المادية أصبحت على ضوء الحقائق السابقة صفة عرضية أيضاً،فهي لا تعدو أن تكون لوناً من ألوان الطاقة، وشكلاً من أشكالها، وليس هذا الشكل ذاتياً لها، لما سبق من أنها قد تستبدل هذا الشكل بشكل آخر، فتتحول المادة إلى طاقة، ويتحول الكهرب إلى كهرباء)[٢].

---

(١) فلسفتنا، ص ٢٩٢ ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ. وص ٣٩٠ ط ثالثة ١٤٣٠هـ

(٢) فلسفتنا، ص ٢٩٢، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

أقول: لله تعالى دوماً، أنت أيها الفارس المجلل والجهبذ العلم!من أين لك كل هذه الميادين والمواقف المؤزرة؟ فلك في كل ساحة وميدان قصب سبق ، وراية نصر ترفرف بها على أنصار الحق.

فإن دخلت ميادين صليل السيوف وشرب الحتوف ، تنوّرت وتشعشعت أركانها وجنباتها بابتسامتك وشوقك الشديد إلى الشهادة،وكأنها بين يديك في ذات الله تعالى **﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾** ، **﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾**[(١)] وقد تحقق لك سيدي ما تصبو إليه، وإن دخلت ميادين الفكر والقلم ، ومعترك المذاهب الاقتصادية والفلسفية ونظرياتها تساقطت على أوراق يراعك، واحترقت بصبابة فؤاده ودموع أماقيه التي صبها بإخلاص مطلق وشوق ووله لخالقه وباريه الذي أقسم به **﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾**[(٢)] وأمر بمقولته وآثاره وعلّم به **﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾**[(٣)]، **﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾**[(٤)].

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ١٥-٢٢.

(٢) سورة القلم، الآية: ١.

(٣) سورة العلق، الآية: ٥.

(٤) سورة العلق، الآيات: ٣-٥.

والنتيجة التي توصل إليها أستاذنا الشهيد الصدر ﵀ بعد عرضه النتائج الأربع الآنفة الذكر على ضوء المذهب المادي لا تتطابق ومبادئ المدرسة الفلسفية، بل تتنافى والقول بأن المادة هي (العلة الفاعلية) لهذا العالم ؟

قال ﵀: (ولا تردد في أن الجواب الفلسفي على هذا السؤال ، هو النفي بصورة قاطعة ...)[١].

وهذا ما سوف ندرسه في المسألة الرابعة بعون الله تعالى.

---

(١) فلسفتنا، ص ٢٩٢ الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ إيران.

المسألة الرابعة

(المـــادة)

في المفهوم الفلسفي

المادة في المفهوم الفلسفي:

تقدم الكلام في المسألة المتقدمة الذكر، وكان البحث فيها عن (المادة) في المفهوم العلمي التجريبي وقد ثبت لنا في تلك المسألة، أن الكشوف التجريبية قد توصلت إلى أبسط ما تتقوم به المادة، وهي (الذرّة)، فإن الذرّة في نظر التجربة - هي المادة في أبسط صورها، حتى قال عنها (ديمقريطس): قبل الميلاد بخمسة قرون، بأنها الجزء الذي لا يتجزأ، فالكرسي مثلاً له مادة وله صورة، فصورته هي هيئة الكرسي المعروفة بالشكل الخاص، ومادته هي الخشب، مثلاً، والماء له مادة وصورة، فصورته السيلان ومادتــه هما ذرة الأوكسجين والهيدروجين ، وبعد أن يجيب المسؤول عن مادة هذه الأشياء، يتوجه له سؤال آخر عن مادة هذه المواد، فيجيب قائلاً، إن مادة الخشب هي العناصر البسيطة، المقومة للخشب من الأوكسجين، والكربون، والهيدروجين،

وهذه المادة المقومة للخشب أيضاً لها مادة مقومة لها، وما هذه المادة المقومة للعناصر الثلاثة، إلا عبارة عن ذراتها، وهذه الذرات أيضاً متقومة بمادة توجد فيها، وما مادة هذه الذرات إلا عبارة عن (النيترونات وهي قلب الذرّة، والبروتونات الموجبة، والإلكترونات السالبة) ولولا هذه لما تكونت الذرّة، وهذه (أي الذرّة) هي أقصى ما توصلت له العلوم التجريبية.

ومن هنا نعرف أن لكل شيء مادة، ومادة الشيء له مادة، وهذه المادة لها مادة حتى نصل على ضوء تسلسل هذه الأسئلة والأجوبة، إلى السؤال الأخير، والذي يجاب عليه بالمادة التي لا مادة بعدها، والتي هي في غنى عن مادة تقوم بها، ومتحررة من رق المادية، وما هي إلا (الذرّة) ولا بأس هنا بذكر معادلة رياضية تبرز لنا المادة الأصلية في التجارب العلمية.

الكرسي = الخشب = الأوكسجين، والهيدروجين، والكربون = النيترونات، البروتينات = الإلكترونات. وهنا تقف هذه المادة، ولا تحتاج إلى ما يقومها في الداخل، سوى ما يقومها ويبعث فيها روح الحركة

والسباحة في فضائها، من الخارج، وليست هي قوة من سنخ الطبيعة لأننا قلنا، أن الطبيعة هي عبارة عن المادة، والمادة الأصلية هي ليست إلا (الذرّة) فكيف تكون مقومة لنفسها بنفسها، بعد أن أثبتنا في (مبدأ العلية) من القسم الأول في هذا الكتاب حدوثها وعدم أزليتها، والحادث لا يمكن أن يكون كاملاً بل ناقصاً ومحتاجاً إلى غيره.

والآن وبعد هذا كله من معرفة (المادة) البسيطة للعالم في المفهوم التجريبي، نريد أن نعرف ما هي أبسط (مادة) في المفهوم الفلسفي ؟ وهل هي (الذرّة) كما تدعيها التجربة لأنها الجزء الذي لا يتجزأ ؟ أم أنها غير (الذرّة) ؟

إننا في الحقيقة والواقع، حينما نريد أن نبحث بحثاً موضوعياً مجرداً من كل العواطف والأعراض لا يتصف بالنزعة المذهبية، لا بد أن نعطي كل مذهب قيمته العلمية، وننظر إلى قواعده وأصوله، التي تمثل روحه وأصالته، حتى يتسنى لنا أن نصفه بالخطأ والصواب في ما طرح لنا من فكرة، والميزان في هذا

الحكم سلباً وإيجاباً، لا بد وأن يكون بمقياس قواعد وركائز صاحب تلك الفكرة، فإن كانت مطابقة لتلك القواعد والأسس فلا بد وأن يكون حكمنا عليها بالإيجاب، بغض النظر عن مذهب آخر يمتاز بقواعد وأسس لا تنسجم مع قواعد وأسس المذهب المحكوم على فكرته، أو التي هي في طريقها للحكم.

ونعود مرة أخرى إلى ما نحن فيه، فنقول: أن ما طرحه العلم التجريبي من فكرته ونظريته الأخيرة القائلة، بأن أبسط مادة للعالم هي (الذرّة) لأنها الجزء الذي لا يتجزأ، هي صحيحة، إذا ما قيست هذه النظرية بقواعد وأسس العلم التجريبي، القائم في نظرياته، على محض التجربة في حقوله الصناعية الاستكشافية وأن ما توصل له مع مرور الزمن هو أن (الذرّة) بما تحتوي عليه من خصائصها المعنية هي المادة الأصلية لهذا العالم، وأن ليس وراءها مادة أخرى، لأن المادة البسيطة في نظرهم هي الجزء الذي لا يتجزأ، وليست إلا (المادة)، ولا بد وأن نعطيه حقه وقيمته العلمية في هذه النظرية في حدوده.

وأما (المادة) البسيطة لهذا العالم في المفهوم الفلسفي، ليست هي (الذرّة) كما ذهبت العلوم التجريبية، فإن الفلسفة العقلية تمشياً مع أسسها وقواعدها التي لا تقوم على أساس من التجربة، وإنما تنطلق في ذلك من مباني عقلية، وهي من هذا المنطلق لا تؤمن بوجود جزء لا يتجزأ، بل تذهب إلى أن كل ما يطلق عليه مفهوم جزء، يتجزأ لأنه يكون مركباً من صورة، ومادة، كما نجزئ الكرسي، لأنه يتقوّم بصورة وهي هيئة الكرسي، ومن مادته الخشبية مثلاً، وذلك أن كل ما يتصف بنقيض تلك الصفة الخاصة الذي هو عليها حين الاتصاف، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مركباً من مادة وصورة، وهذا معنى التجزئة. فالكرسي بما أنه مركب من مادة وهي الخشب، وصورة، وهيئة الكرسي، فهو قابل بمادته أن يتصف بصفة مناقضة لهذه الصورة، فتحول المادة إلى منضدة أو باب، ولا شك أن هذه الصفة مناقضة لصفة الكرسي، وهنا يتبين لنا أن ما هو قابل للتجزئة والانفصال ليس هي صفة وهيئة الكرسي، وإنما القابل لذلك ليس إلا مادته الخشبية، فهي التي يمكن أن تجعل منضدة بعد أن كانت كرسياً.

موقف الفلسفة من المادة الأولى لهذا الكون:

لا بد في هذا البحث من معرفة مذهب الفلسفة العقلية من المادة الأولى للعالم (الذرّة) وهل تؤمن بما قالت به الفيزياء الحديثة حسبما دلت عليه تجاربها من أن الذرّة هي المادة الأصلية لهذا العالم حيث أنها جزء لا يتجزأ، أم لا؟

نحن فيما تقدم كنا نقول أنه لا بد وأن نؤمن بما قالت به التجربة في ضوء التجربة خاصة ولندرس الآن فكرة الفلسفة العقلية، وننظر هل تؤمن بما قالت به الفيزياء الحديثة، وأن (الذرّة) هي المادة الأصلية وذلك لأنه جزء لا يتجزأ أم لا ؟

والفلسفة العقلية، لا تؤمن أولاً وبالذات، بالجزء الذي لا يتجزأ، كما آمنت الفيزياء، بل تقول أن كل جزء هو يتجزأ لأنه مركب من مادة وصورة.

و (الذرّة) هي جزء يتجزأ، لأنها حسبما توصلت له الفيزياء الحديثة أنها عبارة عن (النيترونات – البروتينات الموجبة – الإلكترونات السالبة) وكل من هذه المذكورات

لها وحدات تختلف كميتها حسب عناصرها المنطوية عليها، والوحدات تسبح في حدودها المعينة، وأن هذه الوحدات هي آخر ما توصلت له الفيزياء الحديثة في داخل مختبراتها المتطورة، وهي جزء لا يتجزأ في مفهومها.

ولكن الفلسفة على ضوء ما توصلت له من مواهبها العقلية الدقيقة، وقواعدها المتقنة، حكمت على أن هذه الوحدات هي مركبة من مادة وصورة، وذلك لأنها تتصف بالاتصال الحقيقي حسبما تدعيه الفيزياء، ولو لم تكن متصلة لكان يعني هذا بأن هذه الوحدات يتخللها فراغ كالجسم، وعلى ضوء هذا نفهم أن الوحدات قابلة للتجزئة والانفصال، وأن القابل للتجزئة ليست الصفة الاتصالية، فإن الصفة لا تكون قابلة للتجزئة، فإن هيئة الكرسي في حد ذاتها لا تقبل للتجزئة، وإلا لو كانت القابلة للتجزئة هي صفة الاتصال، كيف يمكن أن نصفها بالاتصال، فإن التجزئة مناقضة للاتصال، هذا يعني أن القابل للتجزئة إنما هي مادة الوحدات البسيطة، وما هذه

التجزئة والتقسيم في داخل الوحدات إلا دليل صارخ بأن الوحدات (الذرّة) مركبة من مادة (وهي القابلة للتجزئة، وصورة وهي صفة الاتصال وتقويم وحدتها).

فتبين أن هذا خلاف ما عليه الفيزياء الحديثة التي تعتبر المادة الأولية لهذا الكون (الذرّة) جزء لا يتجزأ غير مركب من مادة وصورة، وأنها هي المادة الأخيرة، وتقف سلسلة المادة عندها فقط، فإن الفلسفة تقول: أن سلسلة المادة لا تقف عندها بل تتعداها ولا يمكن أن يعترض على ما توصلت له الفلسفة العقلية في هذا المقام من حكمها بأن لوحدات (الذرّة) هي قابلة للانفصال والتجزئة، وكيف أمكنها أن تتوصل إلى هذا مع أنها لا تملك وسائل حديثة تستفيد منها في مقام التجربة ؟

فإن الجواب على هذا، أن الفلسفة العقلية، هي علم مستقل بحياله له أسسه وقواعده الخاصة ، لا يستمد شيئاً من قواعده وأصوله من علوم أخرى، وأن كل ما تتوصل له الاكتشافات الحديثة في مختبراتها المتطورة، إلا في مرحلة متأخرة من التفكير العقلي ولا تقول

الفلسفة أن كل ما أتوصل له بالمواهب العقلية والقابليات الغزيرة، هو في متناول الوسائل الحديثة، فالقول بأن الوحدة هي قابلة للتجزئة، يعني ذلك أنها ميسورة للأجهزة المتطورة وخاضعة لها، فالقضايا الفلسفية لا يمكن أن تنالها التجارب الحديثة ولا تخضع لها في مختبراتها الديناميكية، في الأغلب، إلا ما كان مشتركاً بين الفلسفة والفيزياء، مثل المواد القريبة من تقويم الشيء، كمادة الخشب المقومة للكرسي، والأحجار القابلة للبناء، والحبر المقوم للكتابة، فإن الخشب والأحجار والحبر، كلها مواد معها صورها، وهي قابلة للتجزئة والانقسام، فخشب الكرسي يجعل منضدة، وحَجَر الجدار يجعل سقفاً، وحبْر الكتابة يجعل دائرة، أو مثلثاً وهكذا، وفي مثل هذه لا اختلاف بين المذهب الفلسفي، والتجريبي، فكلاهما يقولان بتجزئة مثل هذه المواد.

وفي هذا المضمار نذكر ما قاله الأستاذ الفيلسوف الأكبر الشهيد الصدر الأول تتُّئ من الناحية الفلسفية ونظرها في الجزء الذي لا يتجزأ، تنويراً لذهن القارئ الكريم، قال: (وحينما يعين العلم تلك الوحدات، يجيء

دور الفلسفة، فتبرهن على أنها مركبة من صورة ومادة أبسط. فنحن لا نتصور وحدة مادية من دون اتصال، لأنها لو لم تكن متصلة اتصالاً حقيقياً، لكانت محتوية على فراغ تتخلله أجزاء، كالجسم. فمعنى الوحدة هي أن تكون متصلة، فلا تكون وحدة حقيقية بلا اتصال، ولكنها في نفس الوقت قابلة للتجزئة والانفصال أيضاً. ومن الواضح أن ما يقبل التجزئة والانفصال، ليس هو نفس الاتصالية المقومة للوحدة المادية، لأن الاتصال لا يمكن أن يتصف بالانفصال كما أن السيولة لم يكن من الممكن أن تتصف بالغازية).

فيجب أن تكون للوحدة مادة بسيطة، وهي التي تقبل التجزئة والانفصال، ويؤدي ذلك إلى أنها – أي الوحدة – مركبة من مادة وصورة. فالمادة هي القابلة للتجزئة والانفصال، الهادم للوحدة، كما أنها هي القابلة للاتصال أيضاً، الذي يحقق الوحدة، وأما الصورة فهي نفس هذه الاتصالية، التي لا يمكن أن تتصور وحدة مادية من دونها) [١].

---

(١) فلسفتنا، ص ٣٠٣ و ٣٥٣ الطبعة الأولى إيران طهران

ثم بعد أن فنّد نظرية الفيزياء الحديثة القائلة بتناهي سلسلة (المادة) عند مرحلة (الذرّة) وأن لا مادة للعالم بعد هذه المرحلة، على ضوء المذهب الفلسفي، قام بعد ذلك برد شبهة تقديرية قائلاً:

(ولكن المسألة التي تواجهنا في هذه المرحلة، هي أن الفلسفة كيف يمكنها معرفة، أن الوحدات الأساسية في المادة قابلة للتجزئة والانفصال ؟ وهل يوجد سبيل إلى ذلك إلا بالتجربة العلمية ؟ والتجربة العلمية لم تثبت قابلية الوحدات الأساسية في المادة للتجزئة والانقسام. ومرة أخرى نؤكد على ضرورة عدم الخلط بين المادة العلمية، والمادة الفلسفية. ذلك أن الفلسفة لا تدعي أن تجزئة الوحدة أمر ميسور بالأجهزة، والوسائل العلمية التي يملكها الإنسان، فإن هذه الدعوى من حق العلم وحده، وإنما تبرهن على أن كل وحدة فهي قابلة للانقسام والتجزئة، وإن لم يمكن تحقيق الانقسام خارجاً بالوسائل العلمية، ولا يمكن أن يتصور وحدة من دون قابلية الانقسام أي لا يمكن أن يتصور جزء لا يتجزأ)[1].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

وخلاصة القول وزبدته أنه ليس في قاموس الفلسفة العقلية شيء في المادة لا يتجزأ ، كما عليه المادية ونظرية (ديمقريطس) ، فإن كل شيء هو مركب من مادة وصورة، كالكرسي الذي هو متقوّم من الخشب ، والخشب متألف من عناصره البسيطة ! الأوكسجين ،والكربون، والهيدروجين، ومادة هذه العناصر هي الذرات ومادة الذرة النيترونات النواة ، والبروتونات، والألكترونات، السالبة والموجبة، وهذه المادة (الخشب) هي العلة الفاعلية لتكون هيئة الكرسي وقوامه وهيئة الكرسي هي الصورة التي تتقوم به شكلية الكرسي ،ولكنها لا تقبل التجزئة لأنها صورة، بخلاف المادة الخشبية، فإنها قابلة لذلك حتى في أصغر عناصرها (الذرة) لا تفلت عن ربقة التجزئة في مفهوم الفلسفة العقلية ،وإن أفصحت النظرية المادية التجريبية بتوقف أجهزتها عن إدراك تجزئة أصغر عنصر (الذرة) منها (النواة) في مرحلة سابقة .

ولكن هذا قد تجاوزته الفيزياء الذرية في مرحلة ثانية التي نفت مقولـــة : (الجزء الذي لا يتجزأ لأن

العلم استطاع في هذه المرحلة أن يجزئ الذرة ويفجرها...) [١] .

وهذا وإن كان يدعم نوعاً ما مقولة الفلسفة العقلية القائلة بأن الجزء يتجزأ ولكن هذا لا يؤكد أن كل جزء هو قابل للتجزئة إلاّ في محيط ما توصل إليه كتفجير نواة (الذرة)، (ولا يقضي بصورة نهائية على نظرية الجزء الذي لا يتجزأ...)[٢] في نظرية (ديمقريطس) الجسم المركب من أجزاء وذرات، وصاحب نظرية قانون النسب في الكيمياء (والتن) .

وبعد أن اتضح ان المادة في أصغر عناصرها وهي (الذرة) ومركباتها الثلاثة هي أيضا متقوّمة من مادة ، وهي العناصر النيترونات والألكترونات والبروتونات ، وصورة قائمة بشكل دائري يشبه المجموعة الشمسية ، في مفهوم الفلسفة الميتافيزيقية ، وعليه فإن هذا التركيب المؤلف من مادة وصورة لابد من مركب ، (... ولا

---

(١) فلسفتنا، ص ٣٠٢ و ٣٠٣ الطبعة الأولى إيران طهران. وص ٤٠٤ ط ثالثة ١٤٣٠هـ.

(٢) المصدر السابق نفسه. ص ٤٠٤.

يمكن لكل من الصورة والمادة ، أن يوجد مستقلا عن الآخر فيجب أن يوجد فاعل أسبق لعملية التركيب... وبكلمة أخرى ، إن المبدأ الأول هو الحلقة الأولى من سلسلة الوجود ، وتسلسل الوجود يبدأ حتما بالواجب ، بالذات... يجب أن يكون غنيا في كيانه ووجوده عن شيء آخر ، والوحدات الأساسية في المادة ليست غنية في كيانها المادي عن فاعل خارجي لأن كيانها مؤتلف من مادة وصورة ، فهي بحاجة إليهما معاً ، وكل من المادة والصورة بحاجة إلى الآخر في وجوده، فينتج من ذلك كله أن نعرف أن المبدأ الأول خارج عن حدود المادة، وأن المادة الفلسفية للعالم - القابلة للاتصال والانفصال - بحاجة إلى سبب خارجي ، يحدد وجودها الاتصالي أو الانفصالي)[١] وليس هو إلا الله سبحانه الفني المطلق، الذي يفيض الكمال ويزيل النقص، وما عداه في العالم مفتقر إليه لعدم استقلاله في كماله إلا إليه تعالى ، وعليه فلا تكون المادة هي العلة الفاعلية لهذا

---

(١) فلسفتنا، ص ٣٠٦، الطبعة الأولى إيران طهران. وص ٤٠٦ ط ثالثة ١٤٣٠هـ.

الكون بما يزخر من نظام متقن ودقة عظيمة ، وبدائع الخلقة الحكيمة التي يتجمل بها الكون في كل لحظة من لحظاته ، ويتسم بها دالا على عظمة صانعه وأيدي قدرته ، قال تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** [١].

وبهذا أختم القسم الرابع وأطوي وإياك أخي المثقف! صحائف رحلتنا هذه ليس إلى الأبد، عسى أن تلتقط بعض أنفاسك وإيـــاي ، **﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾**[٢].

علني وإياك نجد في نصبنا هذا اللّذة التي نبلغ بها رضا ربنا سبحانه ورضوانه، فإن في معترك المذاهب الفلسفية والنظريات المادية حق وباطل ، إثبات ونفي، تخرج الفلسفة الميتافيزيقية الإلهية بإذن الله تعالى من ميدان الاستدلال منتصرة وقد توجتها خيوط الفجر

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٢ .

الفضية وشاح النصر ، وعطرها بندى أنفاس نسيمه الرقيق ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١).

أنطلق وإياك في رحلتنا هذه من محطتها الرابعة المباركة حتى نحط رحالنا بإذن الله تعالى على زنابق فجر جديد ملأ الدنيا بعطره الفواح شذى ، يفيض نداه كحبات اللؤلؤ الرطب على جبينه الأعز ، وينبلج ضوء جماله من مبسمه الندي ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (٢).

«اللهم يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلجه ... وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه. يا من دل على ذاته بذاته...» (٣) .

والحمد لله الذي لا ينقضي حمده من جميع بدئعه، ولا تكلّ الألسن عن تسبيحه ، وإن عجزت عن بلوغ حمده وشكره، ثم الصلاة والسلام على خير من لبى وطاف وصلى وصام ، والمبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد

---

(١) سورة التكوير، الآية ١٨.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣٤.

(٣) من دعاء الصباح للإمام علي عليه السلام اطلبه في كتب الأدعية.

الله، وعلى آله الهداة وخلفائه الحماة ، الذين نورهم من نور النبوة مشكاة وهم أئمة هداة، عليهم جميعا صلوات ربي أبد الدهر، إلى يوم النجاة.

مسودة البحث في يوم السبت ٩ ربيع الثاني ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨٠م ، قم المقدسة - إيران .

وتم الفراغ من التعديل والإضافات في يوم السبت ٧ جمادى الثانية ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠ م الأحساء .

العبد الآبق من مولاه

أبو آدم

حسن الراضي العبد الله

القسم الخامس

المبدأ الأول للعالَم في الفلسفة

تمهيد

بعد أن درسنا في الأبحاث المتقدمة والآنفة الذكر على الصعيد الفلسفي مبدأ العلية ورأينا كيف ثبت بالأدلة الفكرية، والفلسفية، ضرورة الأخذ بمبدأ العلية، وأن لا محيص عنه ورأينا أيضاً كيف قدمت الفلسفة الميتافيزيقية مع ما يعضدها من أدلة وبراهين منطقية، مشفوعة بما توصل له العلم الحديث، من قوانين الديناميكا الحرارية، والحركة المادية، على حدوث العالم، وإبطال القول بأزليته، ثم تدرجنا بعد هذه الأبحاث الفلسفية، التي كانت جواباً لسؤال معقد (هل العالم أزلي، أم حادث ؟)، أقول تمشينا قليلاً انسجاماً مع روح السؤال الذي تطرحه فطرة الإنسان، وهو (إذا كان العالم حادثاً، فمن الذي أوجده، وكان علة في حدوثه، أهي المادة أم شيء خارج المادة

وليس من سننها ؟) ولكن هنا حينما طرح هذا السؤال، لم نجب عليه بشكل ارتجالي، أو بدون مقدمة، بل طبيعة الجواب، وقيمة السؤال الخطيرة، استدعتنا أن ندرس أولاً طبيعة الجواب من كل جوانبه، لتكون الإجابة على ضوء هذه الدراسة مطابقة لروح السؤال، ولا بد أنكم لاحظتم كيف درسنا السؤال من كل أطرافه في أربع مسائل، مسألة واحدة من هذه الأربع خصصناها لدراسة معرفة العلة المرادة في السؤال المطروح، على ضوء مفهوم الفلسفة، وثلاث مسائل منها لمعرفة حقيقة (المادة) الواردة في السؤال، وعلى ضوء النظر العلمي بكلا قسميه النظري، والتجريبي، وعلى ضوء مفهوم الفلسفة.

وهذه المسائل المتقدمة، تعتبر مرحلة تمهيدية ومقدمة، ليسهل علينا الدخول في دراستنا هذه، التي نقوم فيها بطرح آراء المذاهب الحديثة منها والقديمة، والتي هي على اختلاف مشاربها ومنابعها المتعددة، حاولت فيها الإجابة، على روح السؤال، والذي ينتظر الإجابة المنسجمة مع الواقع الموضوعي، بفارغ الصبر، ونحن

في هذه الدراسة، سنطرح ونقدم جميع المذاهب الفلسفية، التي حاولت أن تفرض نفسها الطرف المجيب، وبعد عرضنا لأي مذهب منها، لا بد من أن ندخله المختبر التجريبي في ضوء العلوم التجريبية المسلمة، والمختبر الفلسفي السليم، ثم لننظر إن قبل لديهما قبولاً حسناً أخذنا به، وإلا طرحناه جانباً وقلنا له منّا تحية وسلاماً.

مقدمة

لقد طرحت على ساحة المفهوم العالمي، وإعطاء فكرة عن العالم ومبدأه عدة مفاهيم، وكل مفهوم منها يشتمل في طياته على أفكار ومذاهب، يُعطي كل مذهب لوناً من التفكير عن فكرته التي يرتضيها والمفاهيم المتضاربة، والتي يحاول كل واحد منها أن يقدم لنا فلسفته الخاصة عن العالم والمبدأ الأول وهنا ثلاثة مفاهيم كما صورتها مدرسة السيد الأستاذ الفيلسوف الأكبر الشهيد الصدر الأول ﷺ، وعلى ضوء ما رسمته لنا مدرسته الدقيقة لن نتعدى معالمها العامة، وسوف نقوم بدراستها وتحليلها بعد عرضها، بروح علمية حديثة، نستلهمها ونستقيها من عقلية الفيلسوف الأكبر الخضم ومدرسته المتسعة، والمفاهيم الثلاثة هي:

١- المفهوم المثالي.

٢- المفهوم الواقعي المادي.

٣- المفهوم الواقعي الإلهي[١].

وهنا يمكن أن نعبر عن اتجاه هذه المفاهيم وإعطائها فكرة عن العالم انطلاقاً من (الوجود) الذي له مفهوم خاص في قاموس كل من هذه المفاهيم، وعلى ضوء تحديد وتعيين معنى (الوجود) وفلسفته في قواميسها الخاضعة لخطوط معينة تلتقي معها في قنوات فلسفتها الخاصة، فهي بهذا التحديد المقنن لمفهوم الوجود تقدم لنا مذهبها النهائي عن العالم، والذي يمكننا على غرار هذا الكلام أن نقول، بأنه توجد فكرتان نبعتا من هذه المفاهيم الثلاثة، تعطينا صورة واضحة عن واقعية العالم ووجوده المحسوس:

١- أن العالم بما فيه من عوالم وزمان ومكان، لا واقع له ولا وجود خارج الذهن ، وإنما وجوده الحقيقي في أذهاننا وشعورنا فقط، وهذه فكرة المفهوم المثالي.

٢- أن العالم موجود وله واقعه المحسوس، بما فيه الزمان والمكان، وهذه الفكرة مشتركة بين المفهوم

---

(١) فلسفتنا، ص ٢٠٨.

الواقعي المادي، والمفهوم الواقعي الإلهي. ولكن اختلف المفهومان في إعطاء صيغة معينة لحقيقة ما يتسع له مفهوم الوجود، فبينما ضيق وأفرط في ذلك المفهوم الواقعي المادي لإعطائه (الوجود) مفهوماً ضيقاً لا يشمل إلا ما هو واقع تحت الحواس الفطرية، حيث أنه لم يؤمن بما وراء هذا العالم، فإن المفهوم الواقعي الإلهي، أعطى صيغة (الوجود) مفهومها الحقيقي المنسجم مع روح فلسفته وأُسسها، فقد قال بشمول مفهوم (الوجود) لما وراء هذا العالم المحسوس، وعلى إثر هذا الاختلاف في إعطاء مفهوم صحيح منسجم مع الواقع الموضوعي لحقيقة (الوجود) كان من الطبيعي أن يتحدد المفهوم الواقعي للمبدأ الأول والعلة الأولى لهذا الكون والعالم، عند المفهوم المادي والإلهي، ويعطي كل واحد منهما صورة فلسفية عن (المبدأ الأول) يستمدها من مباني فلسفته الخاصة، فالمفهوم المادي بما أنه لا يؤمن إلا بوجود (المادة) يقول بأن هذا العالم لا يستمد وجوده من خارجه، بل من المادة المحسوسة، وأما المفهوم الإلهي

الذي يؤمن باتساع مفهوم (الوجود) وشموله لما وراء المادة من واقع موضوعي، فالعالم المادي يستمد وجوده من ذلك الواقع الموضوعي وهو (المبدأ الأول) والعلة الأولى.

فلا بد إذن بعد دراسة المفهوم المثالي[١] وعرضه بمذاهبه، من أن ندرس المفهوم المادي، والمفهوم الإلهي، واختبارهما بالأدلة العلمية السليمة، وما توصلت له العلوم الحديثة من تجارب جديدة في الحقل الفيزيائي، لنرى أي المفهومين تتناسب أسسه وأفكاره معها، وترتضيه الفلسفة الصحيحة القائمة على الأدلة المنطقية، والبراهين العلمية الموصلة إلى شاطئ الواقع الموضوعي، والحس الوجداني ؟

---

(١) المفهوم المثالي وإن كان ليس من واقع موضوعنا بالأصالة، الذي نروم دراسته، حيث أنه مع من يؤمن بوجود العالم ووجود المادة، لا مع من لا يؤمن بهما، كالمفهوم المثالي إلا أننا ومع ذلك، نتعرض له بما لا يخلو من فائدة، ولو لم يكن إلا من أجل إظهار زيف من يعتقد به.

المفهوم

المثالي للعالم

تمهيد

استعرضتُ (المثالية) حينما كنت في بحث نظرية (المعرفة) ودراسة مصادر ومنابع المعرفة في تفكير وعلوم الإنسان، فكان البحث فيها من زاوية المعرفة البشرية.

والبحث هنا عن المثالية ننطلق فيه ونتحرك من خندق مفهوم (الوجود) الذي ننطلق منه للإجابة على سؤال مَن الذي أوجد هذا العالم وإلى مَن ينتهي الكون والعالم في وجوده؟ بعدما أثبتنا في أبحاثنا السابقة ضرورة مبدأ العلية، وأن لكل شيء وراء وجوده علة، فما هي علة وجود العالم التي تستتر في خلقه وإبداعه بهذا النظام الدقيق ؟

وفي الحقيقة إن دراسة (المثالية) ليس لها أهمية في بحثنا هذا حيث أنها لا تشكل فيه حجر الزاوية، لأن

خلاصة (المثالية) فيما ترمو إليه هو نفي الوجود لكل شيء خارج الذهن سوى النفس المفكرة حتى بلغت في شوطها هذا حد الإفراط في التنكر للوجود، فكيف تكون المذاهب المثالية قادرة على الإجابة لسؤال مَن الذي أوجد الكون والعالم، وهي تنفيه من جذوره؟

المسألة الأولى

(المثاليـــة)

لدى علماء الإغريق

❖ المذاهب الفلسفية الإغريقية:

كان للفلسفة مفهومها المتميز عن بقية الفلسفات فيما يختص من بحث عن (العالم) كما وأنها أصبحت ذات مذاهب متعددة الأفكار والمباني.

وأنا أذكر منها:

١- مذهب البراهميين :

إن البحث والدراسة لمعرفة رأي هذه الفرقة، ليس بالأصالة داخلاً في موضوع بحثنا إذ أن بحثنا إنما هو لمعرفة رأي الفلسفة الإغريقية عن العالم وإعطائها لنا المفهوم المطابق لأسسها وقواعدها العامة التي تقوم عليها فلسفتها المثالية، وهذا لا يتم إلا عن طريق دراسة فكرتها عن الوجود، ولكن درسنا للوجود في رأي البراهمية لا يخلو من فائدة وإن كانت هذه ليست فلسفة، وإنما هي تعطي فكرة دين من الأديان القديمة، وذلك لأن الفلسفة الإغريقية تأثرت بفكرة هذا الدين، ونحن من أجل

هذا درسناها لتعطينا بذلك صورة جلية، عن مفهوم (الوجود)، لنستعين بها على معرفة بقية المذاهب الفلسفية.

(البراهمية) هي دين ازدهر وانتشر في بلاد الهند، وكان إلاهها الأعظم والأول هو (براهما) وهو أيضاً إله الديانة (الآرية) وكانت تعبر عنه بأنه رمز (الوجود) بل هو الوجود عينه، وهذا الوجود الذي يتجسد في (براهما)هو العالم الرفيع، وأن كل ما يتصف به من أوصاف هي متحدة مع ذلك الوجود ولا يشاركها فيه غيرها، وذلك الغير في نظر البراهميين، هو عالمنا المشاهد المحسوس، وهو في مقابل العالم الرفيع الذي هو رمز الوجود فقط، فعلى هذا يكون العالم المقابل له يكون عدماً محضاً، ومتغيراً ليس فيه شيء من الاستقرار وخلاصة نظرتهم هي أنه يوجد نوعان في العالم، تطلق على الأول العالم الرفيع، والثاني العالم السافل:

أ - العالم الرفيع: هو الذي يتمثل فيه (الوجود) خاصة دون غيره وهو (براهما) إلهها الذي تقدسه.

ب- العالم الأدنى: وهو العالم الذي لا يشارك ذلك العالم في شيء من صفاته فيكون عالماً متصفاً بالعدم، ولا وجود له ولا استقرار، ويكون في مقابل ذلك العالم.

ثم ترى أن العالم الموجود هو المتصف بالخير والقديم الأزلي، والكامل، والعالم المقابل له المعدوم، متصف بالشر، والنقصان، وعدم الكمال، وتعتقد أن (براهما) عالم الخير والكمال، حال في العالم العدمي المتصف بالشر، فالكمال حال في اللا كمال، والدائم في اللا دائم، والموجود في المعدوم، والخير في الشر، وبما أن الإنسان يمثل جزءاً من هذا العالم، إذاً هو مركب من خير وشر، وكمال، ونقص، ودوام ولا دوام، وباق وفان.

وعلى هذا رسمت البراهمية، خطة معينة للإنسان في هذه الحياة ليتخلص من الشر ما دام مركب من خير وشر، أو من عقل وروح، فعليه أن يسلك الطرق التي تقربه من الخير (براهما)، وتبعده عن الشر وهي الشهوات والغرائز الشيطانية التي تعتبر من مطالب الجسم، فيأخذ بكل ما يفني الشر (الجسم) من صوم غير محدود، وأمثاله[1].

---

(١) الجانب الإلهي طبع دار الفكر سنة ١٩٧٣م، ص ٢٥٠ بتصرف.

٢- المذهب الإيلي:

صاحب هذا المذهب: كان أول من بشر بهذا المذهب ودعا إليه هو (اكزنيوفان).

فكرة المذهب :

تتلخص فكرتهم عن (الوجود) بفكرة (البراهميين) المتقدمة والقائلة بحلول عالم الخير والكمال الذي هو عين (الوجود) بعالم الشر والنقصان وعدم الاستقرار الذي هو عين (العدم)، وهذا ما عبر عنه (اكزنيوفان) نفسه قائلاً:

(إله واحد هو الأكبر ... وليس إلهاً خارجاً عن العالم ولا فوقه، بل كعقل مطلق متحد بهذا العالم غير منفصل عنه ومدبر له) [١] فهو يأخذ بمذهب (الحلولية) ولا يرى بأن هذا العالم المحسوس الذي يعبر عنه بعالم الشر والتحرك الدائم، له وجود بل هو محض وهم وخيال.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٤.

البرهان على مدعى هذا المذهب:

وكان برهانهم على أن هذا العالم لا وجود له، ينحصر في دليلين:

أ- أن العالم متعدد الظواهر، وأنه دائم التغير والتبدل، ودائب الحركة وعدم الاستقرار فيه، والوجود لا يتصف بمثل هذه الأوصاف، لأنه دائم وقديم أزلي.

ب- إذا كان العالم بما فيه لا وجود له، فكذلك الحواس الخمس من الباصرة، والشامة،والذائقة، واللامسة، والسامعة، لا وجود لها، لأنها من توابع الجسم، وهو جزء من العالم المعدوم، فكذلك ما يتبعه لا وجود له، ولا تفيد إلا الظن، نعم بالنسبة للعقل، الذي هو الخير والكمال، يمكن أن يفيد العلم واليقين، ويكون موضوعه هو (التأمل) فما يتأمله هو الحق، لأن العقل هو عين الوجود، وما يأتي من الوجود هو حق والحواس موضوعها هذا العالم المتغير، فالمعرفة الناشئة عنها لا تثمر اليقين بل الخداع، فنظرنا حينما يرى الكواكب والأرض وما عليها لا واقع لها ولا وجود، وإنما نظرنا

يخدعنا بتصور مثل هذه الموضوعات الخارجية وعلى هذا يردون دون مصدر (المعرفة) بالعقل دون سواه، وهم على العكس من الماديين القائلين بأن مصدر المعرفة إنما هي المادة، لأنها إنما تنشأ من اهتزاز في ذرات المخ والجهاز العصبي[١].

٣- مذهب أفلاطون في المثل:

لقد كثر الكلام والتأويل فيما يذهب إليه أفلاطون، من علماء الفلسفة وقد أورد الفيلسوف الكبير ملا صدر الدين في كتابه الأسفار[٢] عدة تأويلات من كلمات الفلاسفة في توضيح مذهب المثل الأفلاطونية،وقد تعمق في ردها ومناقشتها، وحمل كلام أفلاطون في المثل بقوله: (فالحري أن يحمل كلام الأوائل على أن لكل نوع من الأنواع الجسمانية فرداً كاملاً تاماً في عالم الإبداع هو الأصل ... فهذه الصور النوعية المادية كالإنسانية والفرسية والثورية، وغيرها من الأنواع، وإن كانت

---

(١) معالم الفلسفة، ص ٨٣.

(٢) الأسفار، ج٢، ص ٤٦.

مفتقرة في عالمنا هذا إلى أن تقوم بمادة حسية، فهي غير مفتقرة في العالم العلوي إلى قيامها بذلك، بل هي في ذلك العالم العقلي مجردة عن المادة قائمة بذاتها مستغنية عما تحل فيه، كما أن الصور الذهنية، وهي مأخوذة من الأمور الخارجية أعراض قائمة في الذهن لا تقوم بذاتها وإن كانت مأخوذة من الجواهر القائمة بذواتها، فكذلك يكون حكم صور الأنواع الجسمانية الحاصلة في المادة من تلك المثل المجردة العقلية الأفلاطونية...) [١].

وقد قال هذا الفيلسوف الكبير ﵀ في أول الفصل المخصص بالمثل الأفلاطونية (قد نسب إلى أفلاطون الإلهي أنه قال في كثير من أقاويله موافقاً لأستاذه سقراط: أن للموجودات صور مجردة في عالم الإله، وربما يسميها المُثُل الإلهية وأنها لا تدثر ولا تفسد، ولكنها باقية، وأن الذي يدثر ويفسد إنما هي الموجودات التي هي كائنة) [٢].

---

(١) الأسفار، ج٢، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق ج٢ ص٤٦.

وقد أفصح الفيلسوف الأكبر الشهيد الصدر ﵀ عبر تحدثه عن المثالية للمثل الأفلاطونية، وقدم لنا صورة واضحة عن مذهب أفلاطون في هذه المسألة فقال: (وقد ابتدأت المثالية دورها الأول في المصطلح الفلسفي على يد أفلاطون حين قال بنظرية خاصة في العقل والعلم الإنساني، وسميت تلك النظرية بنظرية (المثل الأفلاطونية) فقد كان أفلاطون فيلسوفاً مثالياً، ولكن مثاليته لم تكن تعني إنكار الحقائق المحسوسة وتجريد الإدراكات الحسية عن الحقائق الموضوعية المستقلة عن مجال التصور والإدراك، بل كان يعتقد بموضوعية الإحساس) [١].

وبالرغم من أنه في هذا المجال لم يناقش فكرة المثل الأفلاطونية وخطأها بشكل صريح سوى تعبيره عنها بقوله: (وهكذا نعرف أن المثالية القديمة كانت لوناً من ألوان الإسراف في الإيمان بالواقع الموضوعي لأنها آمنت بالواقع الموضوعي للإحساس - إدراك المعاني

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٨، وص ١٠٤ط أولى إيران.

الخاصة بالحس - وللتعقل إدراك المعاني بصورة عامة - ولم تكن إنكاراً للواقع أو شكاً فيه) [١].

إلا أنه رد مثالية أفلاطون في بعض جوانبها لإسرافها في إعطاء الصيغة الواسعة للواقع الموضوعي، وذلك حينما بحث عن أسس المعرفة الإنسانية ومصدر تفكيرها وينبوعها الأصيل، في مسألة (نظرية المعرفة) وطرح بهذا الصدد عدة نظريات، وكان على رأسها نظرية الاستذكار (الأفلاطونية):

وتحدث عن هذه النظرية قائلاً: (وهي النظرية القائلة بأن الإدراك عملية استذكار للمعلومات السابقة وقد ابتدع هذه النظرية أفلاطون وأقامها على فلسفته الخاصة عن المثل... إلخ) [٢].

وهكذا لم تلاقي المثل الأفلاطونية حظاً ممتعاً من قبل الفلاسفة والمفكرين، بصياغتها المطروحة، فقد عابها المؤرخ - فندلبند - بقوله: (إنها - أي المثل الأفلاطونية

---

(١) المصدر نفسه، ص١١٨، وص ١٠٤، ط أولى إيران.

(٢) فلسفتنا ص٥٩، وصـــ٥٣ ط الأولى.

– لم تراع التجارب حق رعايتها، ولذا هي لم تشرح هذا العالم شرحاً تطمئن إليه النفس...)[١].

٤ – وقفة قصيرة للنظر في مذهب السفسطائيين

كلامنا يدور حول المذاهب الفلسفية نحو العالم وما توحيه لنا من نظريات في هذا المضمار، ولكن ونحن ندرس ونفتش عن آراء هذه المذاهب الفلسفية الإغريقية، لا بأس بالتعرض لما هو مرتبط ببحثنا من حيث النتيجة وإن كان يختلف من حيث العرض.

والسفسطة حينما تعطي رأيها النهائي عن العالم لم يكن بروح فلسفية وبتفكير عقلي، لأنها لم تتشح بثوب الفلسفة، بل هي على نقيض منها، وجاءت متسربلة بوشاح الجدل في ميادين الخطابة والمحاماة، لتنافس بذلك الفلسفة وتفوز بقصب السبق عليها.

وظهرت السفسطة وبرزت في القرن الخامس قبل الميلاد على يد قائدها اليوناني (غروغياس). ووضع كتابا في (اللاوجود) برهن فيه على عدة قضايا:

---

(١) الهامش من كتاب الجانب الإلهي ص١٢١.

(الأولى: لا يوجد شيء.

الثانية: إذا كان يوجد شيء فالإنسان قاصر عن إدراكه.

الثالثة:إذا فرضنا أن إنساناً أدركه فلن يستطيع أن يبلغه لغيره) [١].

وهكذا عاشت (السفسطة) ردحاً من الزمن قبل الميلاد في أوج عزها تعبث بالعلم وبالفلسفة وتنابزها، حتى بزغت شمس فلاسفة الإغريق، وانبثق فجر العلم والفلسفة على يد قماقمة الفلسفة وعمالقتها وهم: سقراط، وأفلاطون، وأرسطو.

حيث وضع سقراط كتابه في المنطق لتنظيم الفكر الإنساني، ومذهبه في نظرية المعرفة، ضد السفسطة ومغالطاتها العابثة بالعلم، القائل: (أن المعلومات الحسية، المعلومات العقلية الأولية أو الثانوية التي تكتسب بمراعاة الأصول المنطقية هي حقائق ذات قيمة قاطعة...) [٢] .

---

(١) معالم الفلسفة، ص ٨٧.

(٢) معالم الفلسفة، ص ٨٧.

وإن كان ظهر فيما بعد مذهب الشك على يد أحد المبشرين به (بيرون) الذي تزعم المصالحة والتقارب بين مذهب السفسطة النافي للحقائق والعالم، والإثبات للحقائق بما فيه العلم في المنطق الارسطي وكان مذهب (بيرون) يعرف بمذهب الشك في كل شي فهو قابل للسلب والايجاب بشكل مطلق ، (فكل قضية في نظره تحتمل قولين ، ويمكن إيجابها وسلبها بقوة متعادلة)[١].

ويعرف بالحجج العشر في إثبات شكله المطلق.

ولكن مذهب اليقين الأرسطي سيطر وتربع العقل على كرسي حكمه وخمدت جذوة الشك (البيروني) وسقطت (السفسطة) وانهار صرحها تحت جحافل العقل ، حتى ظهر على ساحة الفلاسفة رجل أوروبا (ديكارت) في فلسفته التي بدأها أولاً باشك ، وانتهى بعده بالمعرفة الفطرية العقلية ووصفها بأنها صادقة ، وكان منها الإيمان بالله تعالى لأنه يفوق الإنسان[٢].

---

(١) فلسفتنا، الطبعة الأولى إيران، ص ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

وكانت السفسطة تنقسم إلى ثلاثة فئات كما صورها علماء الكلام[١].

نذكر منها على سبيل الاختصار فقط:

الفئة الأولى العنادية: وهذه تنكر الوجود، ولا تعترف بوجود شيء، وأن كل ما يظن وجوده وهم وخيال، وعبر عنها بالعنادية لأنها تعاند البديهة، حيث تقول: أن الكون .... موجوداً فإما أن يكون قديماً، وإما أن يكون حادثاً...) [٢].

والسفسطة بهذه الروح العنادية المتعنتة التي لا تقوم على الاستدلال العقلي المنطقى والبرهان المقنع لا تليق أن تكون في مصاف الفلسفة القائمة على الدليل والبرهنان والمنطق العقلي.

وليس من حقها أن تدخل ميدان المباريات العلمية مع الفلسفة، وتكلف المتفرجين عناء نتائج دخولها وسباقها الأعرج معها، فإن نتائج تلك محسومة لصالح الفلسفة سلفاً.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٠.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩١

المسألة الثانية

(المثالية)

في الفلسفة الحديثة

لقد قدمت مدرسة أستاذنا الفيلسوف الأكبر الشهيد الصدر ﷺ لنا بحثاً مسهباً عن (المثالية) في ثوبها الجديد بشكل دقيق من كل جوانبها، فبحثها من ثلاثة جوانب:

وأنا سأكتفي بدراسة (المثالية) من الجانب الفلسفي لإبطالها، وسأعرض عن الجانبين الثاني والثالث لعدم الحاجة في ذلك:

الأول: من الجانب الفلسفي.

الثاني: من الجانب الفيزيائي.

الثالث: من الجانب الفسيولوجي.

وقد درس هذه الجوانب الثلاثة بروح علمية تقوم على أساس متين من الأدلة المنطقية والبراهين العقلية الرصينة، فبهذا بين زيف المثالية الحديثة.

إن المثالية الحديثة اتخذت خطاً يغاير في جوهره خط المثالية القديمة المتمثلة في فلسفة أفلاطون المثالية، فهي

على العكس تماماً منها، فبينما تلك المثالية تؤمن بالحقيقة الموضوعية للإدراكات العقلية والحسية، وأن الحقائق الموضوعية الخارجية موجودة خلف تفكيرنا، وبعبارة أوضح أن المثالية الأفلاطونية كانت تؤمن بالمحسوسات ووجودها، ولا تحصر الوجود بالحواس كانت المثالية الحديثة لا تؤمن بوجود للواقع الموضوعي سوى الحواس بعبارة أخرى أن المثالية في فلسفتها الحديثة لا تؤمن إلا بالمدرِك والمدرَك، وهي ليست إلا النفس المدركة والمعاني والتصورات المدرَكة التي هي داخل النفس.

المثالية وفلسفتها الحديثة:

إن الفلسفة (المثالية) كانت في فلسفتها هذه جاءت مناقضة لما عليه الفلسفة (المادية) وكل من هاتين الفلسفتين أفرطتا في التحدث عن العالم، فبينما كانت هذه الفلسفة تصور لنا أن (المادة) هي العلة الأولى وهي المبدعة والخلاقة، وهي المنظمة للحياة بصورة شاملة، وإذا بالفلسفة (المثالية) لا تؤمن بوجود شيء خلف

إحساساتنا ونفوسنا وأنكرت كل شيء بما في ذلك (المادة) وللمثالية الحديثة اتجاهات متعددة،وهي: المثالية الفلسفية، والمثالية الفيزيائية، والمثالية الفسلجية والممثل الأساسي لها - الفلسفة المثالية - (باركلي) الذي يعد أمام المثالية الحديثة) [١] .

بعد أن تكلمنا عن (المثالية) في ثوبها القديم، نتحدث في هذه الدراسة عنها في ثوبها الجديد.

جورج باركلي[٢]:

تمتاز فلسفة (باركلي) بمكابرة (المادية) ونسفها من جذورها وعدم الإيمان بكل ما تقدمه.

إن فلسفة (باركلي) لا تؤمن بشيء في الوجود سوى شيء واحد وهو العقل الذي يدرك، والشيء المدرَك المنفعل القابل لإدراك حواسنا وعقولنا، وفلسفته كانت

---

(١) فلسفتنا، ص ١٠٥، الطبعة الأولى طهران إيران.

(٢) ولد باركلي في الجنوب الشرقي من إيرلندا ١٦٨٤م ومات ١٧٥٣م، راجع تهافت الفلاسفة ص ٢٣٨.

تتمخض عن الإيمان بالمبدأ الأول والعلة الأزلية إلى جانب إيمانه بوجود النفس والعقل.

قال (باركلي) في حديثه عن فلسفته التصورية: (أنه لا ريب أن يخالك إلى جانب أفكارنا ذواتاً مدركة أنني أعلم حق العلم أن أفكاري كائنة في عقلي ولا أستطيع أن أميز تمييزاً واضحاً بين ذاتي وأفكاري، وإذن فللعقل وجود مستقل لا شك فيه وهو الذي يتناول أشتات الأفكار فيصل بينها وينظمها ولولاه لظلت مفككة لا تؤدي إلى معنى)[١].

وبهذا كان يؤمن بأن العقل ليس فكراً من الأفكار، لأنه يدرك الأفكار وهي مدركة له، وفلسفته تسند هذه الأفكار إلى مصدر العلة الأزلية وهو (الله) وأنه هو المنشئ للأفكار، لأنها ليست من إبداعنا، (وبما أن هذه الأفكار ليست من إبداعنا نحن فلا بد أن يكون هناك سبب خارج عنا، ولا بد أن يكون ذلك الكائن مفكراً مريداً لأنه بغير

---

(١) تهافت الفلاسفة، ص ٢٢٦.

الإرادة لا يمكن أن يكون فاعلاً ومؤثراً في الناس – ثم قال – وهذا الكائن هو الله) [١].

ويؤكد (باركلي) مرة أخرى في فلسفته التصويرية عن العالم قائلاً: (أنه ليس سوفسطائياً ولا شاكاً في وجود العالم وما فيه من حقائق وكائنات بل هو يعترف بوجود ذلك كله ... وإنما يتفاوت عنهم (الفلاسفة) في تحديد مفهوم الوجود، فالوجود عند (باركلي) ليس بمعناه عند الآخرين فما هو موجود في رأيهم يؤمن (باركلي) بوجوده أيضاً ولكن على طريقته الخاصة في تفسير الوجود التي تعني أن وجود الشيء عبارة عن وجوده في إدراكنا أي إدراكنا له) [٢].

وبعد هذا كله قد يتساءل البعض مع (باركلي) ويقول إذا لم يكن للمادة وجود حقيقي خلف إحساساتنا فمن أين يمكن أن تنبثق هذه الإحساسات في أذهاننا مع أننا لا نملك إرادة توجد هذه الإحساسات ؟

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢٨.

(٢) فلسفتنا، ص ١٢٠ وص ١٠٦، الطبعة الأولى.

وكان الجواب فيه أن هذه الإحساسات التي نشعر بها داخل نفوسنا ليست وليدة ما نراه وما نتصوره أمامنا، وإنما الذي يولد هذه الإحساسات فينا ويبعثها هو الله.

وهكذا يخرج المتتبع لدراسة فلسفة (باركلي) بحقيقتين كان يؤمن بهما.

الأولى: هي إيمانه بوجود المدرك وهي النفس أو العقل.

الثانية: هي إيمانه بالمبدأ الأول والعلة الأصلية الباعثة فينا الإحساسات والشعور.

إن فلسفة (باركلي) مع ما تنطوي عليه من تناقضات في داخلها وعدم إيمانها بما هو مسلم به عند أغلب الفلاسفة، هذا بالإضافة إلى تقويضها لنظرية المعرفة، نعم مع هذا كله، أراد (باركلي) أن يعضد فلسفته التصورية بأدلة ذكر منها الفيلسوف الأكبر أربعة أدلة، ودحضها بما لا يقبل النكران، وأكتفي بعرض دليل واحد،ورد السيد الأستاذ عليه، لضيق المجال.

الدليل الأول: وخلاصته هو (أن جميع الإدراكات البشرية ترتكز على الحس وترجع إليه فالحس هو

القاعدة الرئيسية لها. وإذا حاولنا اختبار هذه القاعدة وجدناها مشحونة بالتناقضات والأخطاء. فحاسة البصر تتناقض دائماً في رؤيتها للأجسام قربها وبعدها فهي تدركها صغيرة الحجم إذا كانت بعيدة عنها، وتدركها بحجم أكبر إذا كانت قريبة منها، وحاسة اللمس هي أيضاً تتناقض، فقد ندرك بها شيئاً واحداً إدراكين مختلفين.

ويوضح (باركلي) بعد ذلك فيقول: أغمس يديك في ماء دافئ بعد أن تغمس إحداهما في ماء ساخن والأخرى في ماء بارد، أفلا يبدو الماء بارداً لليد الساخنة وساخناً لليد الباردة ؟ فهل يجب إذن أن نقول عن الماء أنه ساخن وبارد في نفس الوقت ؟ أوليس هذا هو الكلام الفارغ بعينه ؟!

وإذن فلتستنتج معي أن الماء في ذاته لا يوجد كمادة مستقلاً عن وجودنا، فهو ليس سوى اسم نطلقه نحن على إحساسنا، فالماء يوجد فينا نحن!!!...) [١].

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢١؟

هذا وبعد أن أورده السيد الشهيد ﷺ نقده ببراهينه الواضحة التي لا رين عليها فقال (وهذا الدليل لا قيمة له للأسباب الآتية) وأنا أكتفي منه بذكر أثنين فقط بقدر الضرورة.

أولاً: (أن المعارف البشرية لا ترتكز كلها على الحس والتجربة، لأن المذهب العقلي الذي درسناه في الجزء السابق من المسألة – المصدر الأساسي للمعرفة – يقرر وجود معارف أولية ضرورية للعقل البشري، وهذه المعارف الضرورية لم تنشأ من الحس ولا يبدو فيها شيء من التناقضات مطلقاً، فلا يمكن اقتلاع هذه المعارف بالعاصفة التي تثار على الحس والادراكات الحسية، ومادمنا نملك معارف في منجاة عن العاصفة فمن الميسور أن نقيم على أساسها معرفة موضوعية صحيحة)(١).

ثانياً: ذكر السيد الشهيد ﷺ في رده الثاني التناقضات الموجودة في دليل (باركلي) وأنه استند في دليله على

(١) المصدر السابق، ص ١٢٢.

إبطال الواقع الموضوعي لادراكاتنا، بقاعدة فلسفية هي عدم التناقض، وكان يدعي وجود تناقضات في ادراكاتنا وإحساساتنا، فلا يعتمد عليها بينما الواقع الموضوعي لو ثبت لا يمكن أن يغشاه ويستبطنه التناقض.

ولكن السيد الشهيد ﷺ رد زعمه هذا بوجود التناقض فيه قائلاً في هذا الصدد: (وغاب عنه أن مبدأ عدم التناقض ليس في المذهب التجريبي إلا مبدأً تجريبياً يدلل عليه بالتجربة الحسية، فإذا كانت الإدراكات والتجارب متناقضة كيف صح لباركلي أن يؤمن بمبدأ عدم التناقض، ويبرهن عن هذا الطريق على عدم وجود واقع موضوعي ؟ لماذا لا يصح عنده وجود واقع موضوعي تتناقض فيه الظواهر والأشياء ؟ الحقيقة أن باركلي استند لا شعورياً إلى فطرته الحاكمة بمبدأ عدم التناقض بصورة مستقلة عن الحس والتجربة)[1].

ب - مذهب اللا أدرية:

وهذا المذهب نراه لا يقل تفاهة وسذاجة من الفلسفة (المادية) التي كانت تقف من الفلسفة (الميتافيزيقية)

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٨، الطبعة الأولى.

والعلوم التجريبية المسلمة موقفاً سلبياً من خلال فكرتها عن (العالم) في أزليته وحدوثه، والمذهب الذي نحن بصدده نراه يضرب على نفس الوتر الذي تضرب عليه المادية، ولا يختلف عنها، لأنه فصيلة منه، فالمجيبين على سؤال: (من الذي أوجد العالم أو ما هي العلة الأولى لهذا الكون) لا ندري كالقائلين (بقدم العالم) في عدم خضوعهم للدليل والبرهان المنطقي الحر.

فها هم يعتذرون بجهلهم عن المصدر الأول لهذا (العالم) بعد تسليمهم بحدوثه، وما هذا إلا دليل واضح في عدم خضوعهم لمعطيات ونتائج العلم بكلا قسميه: النظري - والتجريبي. الذي حدد موقفه من هذا السؤال، وأجاب بفساد (الصدفة) وعجزها عن أن تكون العلة الأولى لهذا الكون، وكذا عجز (المادة) عن أن تكون علة لهذا النظام العجيب والكون الذي يحيط بنا، ولكنهم وقفوا من هذا كله موقفاً سلبياً.

الأقوال في هذا المذهب :

١- قال أحد رجال المادة الفيلسوف (روجيه غارودي عن أدينغتون): (إن الاعتبارات حول بداية الأشياء تكاد

تفلت من التفكير العلمي. ونحن لا نستطيع أن نعطي أسباباً علمية للتأكيد بأن هذا العالم قد خلق بشكل دون آخر) [١].

٢- ويقول أحد الكتاب الماديين: (لا نعرف ولن نعرف كيف يكون الجواب على مشكلة المصدر الأول للأشياء) [٢].

٣- وقال أحدهم أيضاً: (في الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا حول كل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون... عندما تسألني: وما علة وجود المادة الأولى ؟ فإن أقصى ما أستطيع الإجابة به: لا أعرف، إلا أنها غير معلولة الوجود !).

٤- ويقول غارودي: (يبدو أن البداية تعترضها صعوبات لا يمكن التغلب عليها، إلا إذا اتفقنا على أن ننظر إليها بصراحة كأمر فوق الطبيعي)[٣].

---

(١) المادة بين الأزلية والحدوث، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣-٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

وهذه الأقوال الصادرة من (اللا أدرية) لا يمكننا مناقشتها والاستدلال عليها ببراهين عقلية أو نظرية، لأنها لا تقوم على ركيزة علمية، أو عقلية، نعم هي قائمة على عدم الإيمان بكل ما دلل عليه العلم، وأثبتته التجارب الحديثة، ومن الجدير بهذا المذهب، أن لا يكلف الدليل والبرهان على صحة مدعاه، ولو ألزم ذلك، فالأمر عنده سهل يسير، فإنه يحتج قائلاً: أن كل ما تقدمه المذاهب الأخرى لا أؤمن به.

وعلى الكاتب أن يضرب عنه صفحاً، ويطوى عنه كشحاً، ويمر به مرور الكرام، فإن الأدلة العقلية، والبراهين المنطقية تكفيه مؤنة، وتظهر له قيمة وحقيقة هذا المذهب الساذج !

وبهذا أختم دراستي عن (المثالية) وما يساوقها من مذاهب تلتقي معها في النتيجة والقيمة وإن اختلفت مع (المثالية) في الأسلوب والمعالجة.

فجميع هذه المذاهب والأديان: من البراهمية، والإيلية، والسفسطائية، واللا إدرية، والمثالية، لم تقدر أن تجيب

على سؤال مَن الذي أوجد الكون والعالم، بعد التسليم بمبدأ العلية في الأشياء ؟

وبعد هذا كله من العرض والاستدلال الذي قدمته بين يديك واستمتعت وإياك بفضل تفاعلك وحضورك معي في رحلة الاستدلال الفلسفية اللذيذة، ألملم أوراقي وأشد حقيبتي، ويكفكف يراعي أماقيه ويخرس لسانه بعد توديعك ولكن لا إلى الأبد، وإنما لأجل أن يلتقط بعض أنفاسه، وتكون أنت الآخر في نقاهة التفكير والمعرفة، ليدق باب ذهنك وعقلك مرة أخرى، فإن وجد بك رغبة في العودة إلى رحلة الفلسفة والاستمتاع بها على بساط الجزء الثالث انهمرت دموع أماقيه فرحاً وسروراً، ومدّ لسانه الرشيق مرة ثالثة ليذيقك من سماء رحيقه المختوم منّاً وسلوى على صفحات قلبه البيضاء، وانقلب إلى أهله بذلك مسروراً.

وإن لم يجد بك رغبة وشوقاً فيما عنده فسيقول لك تحية وسلاماً.

ولا أظن منك إلا الرغبة في التواصل والجلوس على مائدة العلم والمعرفة، وإني وإياك لسنا في غنى عن ورود موارده الرويّة.

فعلى أمل اللقاء وإكمال البحث للجواب الشافي على سؤال مَن الذي أوجد العالَم بعد إيماننا بحدوثه؟

فإلى الجزء الثالث إذاً بعون الله تعالى نلتقي.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وأصحابه البررة .

الأحساء - ١٤٣١ هـ-٢٠١٠م

حسن علي الراضي العبد الله

المصادر

- القرآن الكريم.
- نـهج البلاغة – الإمام علي عليه السلام.
- فلسفتنا – السيد الإمام الشهيد الأول محمد باقر الصدر قدس سره.
- الجانب الإلهي.
- الإيمان والعقل.
- الأسس المنطقية – السيد الإمام الشهيد الأول محمد باقر الصدر قدس سره.
- معالم الفلسفة .
- مذاهب ومصطلحات فلسفية.

- منهج البحث عن المعرفة.

- فلسفة الإمام الصادق عليه السلام - محمد الجواد الجزائري، مؤسسة أهل البيت عليهم السلام بيروت ١٤٠٦هـ.

- المنهاج الجديد في الفلسفة العربية - عمر فروخ.

- تهافت الفلاسفة - أبو حامد الغزالي، ط دار الألباب ١٩٩٨م.

- تاريخ الفلسفة الأوربية.

- الوجــود.

- مشكلات ما بعد الطبيعة.

- مصطلحات فلسفية.

- أفلاطون - غاستون مير، تعريب بشاره صافي.

- الأسفار - ملاّ صدر الدين الشيرازي.

- الرسائل - ملاّ صدر الدين الشيرازي.

- مصارعة الفلاسفة.

- تجريد الاعتقاد - نصير الدين الطوسي ت ٦٧٢هـ، ط ١٤٠٧ هـ.

- المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة - د. محمد غلاب.

- الفلسفة الطبيعية - المؤلفة: ألن جكسن.

- الفلسفة عند اليونان - ط دار النهضة العربية ١٩٧٤م، دكتورة أميرة حلمي مطر.

- تلخيص المحصل.

- تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم، ط دار القلم لبنان.

- المادية والمثالية الفلسفية.

- الفلسفة أنواعها ومشكلاتها.

- المنهاج الجديد في تعليم الفلسفة - محمد تقي مصباح، ط قم ١٤٢٠هـ .

- رسائل فلسفية - ط دار الأضواء، بيروت ١٩٨٠م.

- المحصل – محمد بن عمر فخر الدين الرازي، منشورات الرضي ط ١٩٩٩م.
- الوجود .
- دراسات .
- مصارعة الفلاسفة.
- المبدأ والمعاد.
- دراسات في الفكر الإسلامي.
- فلاسفة من الشرق.

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة